الفصل الخامس

العلماء والحياة الدينية بمصر والشام

obeikandl.com

نقاط الفصل الخامس

١ ـ العلماء ومحاربة الطوائف المنحرفة :

أ ـ مبتدعة الصوفية [التصوف الفلسفى ، تصوف الدراويش] .

ب ـ العلماء والزنادقة .

جـ ـ العلماء وغلاة الشيعة .

٢ ـ العلماء ومحاربة البدع :

أ ـ الاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان .

ب ـ البدع المرتطبة بالقبور .

جـ ـ بدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات .

د ـ بدعة صلاة الرغائب .

هـ ـ البدع المتعلقة بالنكاح .

و ـ بدعة مشاركة المسلمين أهل الذمة الاحتفال بأعيادهم .

٣ ـ العلماء والمجالس الدينية ووعظ السلطة المملوكية :

أ ـ العلماء والمجالس الدينية للمصريين والشاميين .

ب ـ العلماء ووعظ السلطة المملوكية « وعظ دينى » .

٤ ـ العلماء والمحن والابتلاء « الجفاف ، الطاعون » :

أ ـ حث العلماء السلطة والرعية على التوبة من المعاصى .

ب ـ التضرع إلى الله والدعاء والصلاة « صلاة الاستسقاء » لرفع البلاء .

٥ ـ العلماء وأهل الذمة :

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس .

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة .

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة .

obeikandl.com

١ ـ العلماء ومحاربة الطوائف المنحرفة

شهدت مصر والشام ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ طوائف منحرفة حاولت القدح فى الإسلام وثوابته، ولكن علماء مصر والشام تصدوا بحزم وقوة لتلك الطوائف، ويمكن تقسيم تلك الطوائف إلى ثلاث طوائف رئيسية، مبتدعة الصوفية، والزنادقة، وغلاة الشيعة.

أ ـ العلماء ومبتدعة الصوفية:

ازدهر التصوف بمصر والشام(*) فى العصر المملوكى(١)، وكان من مظاهر هذا الازدهار اعتناق كثير من علماء مصر والشام للتصوف السنّى(٢)، أمثال:

(*) يرجع ازدهار التصوف بمصر والشام عصر سلاطين المماليك إلى عناية سلاطين المماليك بأمر الصوفية والتصوف فنجدهم يشاركون عامة الشعب الاعتقاد فى مشايخهم وأولياءهم والعطف عليهم، فينشئون الكثير من البيوت التى خصصت لهم كالخوانق والزوايا، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، كذلك وجد المصريون والشاميون ملاذًا فى التصوف من الضيق والبؤس وحياة القهر والظلم التى عاشوها فى ظل حكم المماليك حيث انقطعوا للعبادة وآثروا الزهد، وفى ذات الوقت وجدوا فى التصوف مستقرًا ينعمون فيه بما يضمن لهم البقاء من خلال ما كان يصرف على الصوفية من ريع الأوقاف التى أوقفها سلاطين المماليك على الصوفية، انظر: غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى: دراسة دبلوماتية» ص ٢٠، ٢١، ماجستير، «قسم الوثائق»، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٣٤٣.

(١) د. سعيد عاشور «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» ص ١٨٦، د. نقولا زيادة «دمشق فى عصر المماليك» ص ١٢٦، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٣٤٣، غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى» ص ٢٠، د. على منصور «الحياة العلمية فى القدس فى القرن الثامن فى ضوء كتاب «الدرر الكامنة» لابن حجر» ص ٣٦، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد (٢٢) عام ١٤٢١-١٤٢٢هـ/٢٠٠٠-٢٠٠١م.

(٢) التصوف السنّى: هو التصوف الذى يتمشى مع الكتاب والسنّة النبوية، ويرمى إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفس وإصلاح أخلاقها، ومن أبرز أعلام هذا التصوف الغزالى «ت ٥٠٥هـ» الذى أرسى =

«**من علماء مصر**»، برهان الدين البيجورى[1] «ت ٨٢٥هـ»[2]، وسراج الدين أبو حفص[3] «ت ٨٢٩هـ»[4]، وزين الدين القلمطاوى[5] «ت ٨٥٦هـ»[6]، والشهاب أبو العباس القنائى[7] «ت ٨٥٨هـ»[8]، وشهاب الدين الأبشيطى[9] «ت ٨٨٣هـ»[10].

= قواعد التصوف السنّى فى موسوعته «إحياء علوم الدين»، انظر: الواسطى «محمد بن عمر «ت ٨٤٩هـ»» «قواعد الصوفية» ص ٥، ٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٢ تصوف)، ومكروفيلم (٣٢٥٩٠)، د. محمد حسن «المصطلح الصوفى عند ابن عربى» ص ١١٥، مجلة كلية دار العلوم، القاهرة، العدد (٣٠) عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، توفيق بن عامر «مواقف الفقهاء من الصوفية فى الفكر الإسلامى» ص ٣٢، حولية الجامعة التونسية، كلية الآداب، عدد (٣٩) عام ١٩٩٥م، د. محيى الدين صافى «بحث فى التصوف الإسلامى والتجارب الروحية الأخرى» ص ٢١٦، بحث نضر ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية، دار العلوم، القاهرة، ١٩٩٦م، د. أمين يوسف «فى أصل مصطلح التصوف» ص ١٢٨، مجلة البحوث والدراسات الصوفية، عدد (١) جمادى الآخرة، ١٤٢٤هـ، أغسطس ٢٠٠٣م.

(١) برهان الدين البيجورى: إبراهيم بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه، وكان من كبار علماء الشافعية فى عصره، درس وأفتى، توفى عام ٨٢٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧.

(٢) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ٢٩١، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧.

(٣) سراج الدين أبو حفص: عمر بن على، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه والتفسير، درس وأفتى، انتهت إليه رئاسة الحنفية فى عصره، توفى عام ٨٢٩هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤.

(٤) ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ١١٥.

(٥) زين الدين القلمطاوى: هو عمر بن قديد، تفقه على شيوخ عصره، درس وبرع فى العربية، توفى عام ٨٥٦هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣١٢.

(٦) ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣١٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ١١٣.

(٧) الشهاب أبو العباس: أحمد بن عباد، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى عام ٨٥٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٨) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٩) شهاب الدين الأبشيطى: أحمد بن إسماعيل، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى ٨٨٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٣٥، البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ٥٨.

(١٠) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ٥٨، السخاوى «الضوء اللامع» ح١ ص ٢٣٥.

«**من علماء دمشق**»، تقى الدين الحصنى[1] «ت ٨٢٩هـ»[2]، وابن عروة[3] «ت ٨٣٧هـ»[4]، والزين أبو الفرج[5] «ت ٨٤٤هـ»[6]، وزين الدين ابن داود[7] «ت ٨٥٦هـ»[8].

«**من علماء حلب**»، أبو بكر بن نصر[9] «ت ٨٤٦هـ»[10]، وشهاب الدين أبو العباس[11] «ت ٨٧٢هـ»[12].

«**من علماء القدس**» شهاب الدين ابن رسلان[13] «ت ٨٤٤هـ»[14]، والزين

---

(١) تقى الدين الحصنى: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الفقه، توفى ٨٢٩هـ، انظر: ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح٢ ص ٣٠٨.

(٢) المقريزى «العقود الفريدة» ح١ ص ١٨٢.

(٣) ابن عروة: على بن حسين، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الحديث، توفى عام ٨٣٧هـ، انظر: المقريزى «درر العقود» ح٢ ص ٤٨٢.

(٤) ابن عبد الهادى «ذيل ابن عبد الهادى» ص ٦٢.

(٥) الزين أبو الفرج: عبد الرحمن بن سليمان، تفقه على شيوخ عصره، كان بارعًا فى الفقه والتفسير، توفى عام ٨٤٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح٤ ص ٨٢.

(٦) السخاوى «الضوء اللامع» ح٤ ص ٨٢.

(٧) زين الدين ابن داود: عبد الرحمن بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، وكان زاهدًا، آمرًا بالمعروف وناهيا عن المنكر، توفى عام ٨٥٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح٤ ص ٦٢، النعيمى «الدارس فى تاريخ المدارس» ح٢ ص ٢٠٢.

(٨) السخاوى «الضوء اللامع» ح٤ ص ٦٢.

(٩) أبو بكر بن نصر: أبو بكر بن نصر، تفقه على شيوخ عصره، كان عالمًا زاهدًا ورعًا، من علماء حلب، توفى عام ٨٤٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح١١ ص ٩٦.

(١٠) السخاوى «الضوء اللامع» ح١١ ص ٩٦.

(١١) شهاب الدين أبو العباس: أحمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، انتهت إليه رئاسة العلم بحلب فى زمانه، درس وأفتى، توفى ٨٧٢هـ، ابن تغرى «المنهل الصافى» ح١ ص ٢٢٤.

(١٢) ابن طولون «الغرف العلية فى تراجم الحنفية» ص ٩٠، ابن تغرى «المنهل الصافى» ح١ ص ٢٢٤.

(١٣) شهاب الدين ابن أرسلان: أحمد بن حسين، تفقه على شيوخ عصره، حتى صار إمامًا فى الفقه والتفسير والحديث بالقدس، توفى عام ٨٤٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح١ ص ٢٨٥.

(١٤) البقاعى «عنوان الزمان» ح١ ص ٦٧، السخاوى «الضوء اللامع» ح١ ص ٢٨٥.

openkandil.com

أبو الجود[1] « ت ٨٦٧هـ »[2].

ولكن ظهر إلى جانب هذا التصوف السنّى تصوف بدعى، ولقد أخذ هذا التصوف البدعى شكلين رئيسيين، أولهما التصوف الفلسفى، وثانيهما تصوف الدراويش والمجاذيب، ولقد حارب علماء مصر والشام هذين الشكلين من التصوف البدعى.

* العلماء والتصوف الفلسفى:

لقد جاء التصوف الفلسفى بأراء ونظريات اصطدمت مع العقيدة، كنظرية وحدة الوجود[3]، ولقد كانت تلك النظريات خليط من الفلسفات الهيلينية والفكر الشيعى، والغنوصية المسيحية، وكان من رواد هذا الاتجاه ابن عربى[4] « ت ٦٣٨هـ »، وابن الفارض[5]

---

(١) الزين أبو الجود: ماهر بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، كان شيخ الشافعية ببيت المقدس، توفى عام ٨٦٧هـ، انظر: السخاوى « وجيز الكلام » ح٢ ص ٧٥٣.

(٢) السخاوى « وجيز الكلام » ح٢ ص ٧٥٣.

(٣) **وحدة الوجود**: ترى هذه النظرية أن ذات الله عزّ وجلّ قد حلت فى مخلوقاته، واتحدت بها، يعنى أنه ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله، ولا تسمى الكائنات الأخرى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز، انظر: د. مصطفى حلمى « ابن تيمية والتصوف » ص ١٩٩، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤١٢هـ، د. عبد اللطيف محمد العبد « موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة » ص ٥٧٥، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٤) ابن عربى: أبو بكر بن محمد، ولد بمرسية من أعمال الأندلس، نشأ فى أسرة متصوفة، طاف بالأندلس، وزار شمال إفريقيا، وآسيا الصغرى، ثم رحل لدمشق، وأقام بها حوالى عشرين سنة، صاغ نظرية فى التصوف فى كتابيه « فصوص الحكم »، و « الفتوحات المكية »، توفى ٦٣٨هـ، انظر: جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦١، ترجمة عبد القادر قنينى، دار إفريقيا الشرق، بيروت، ١٩٩٩م، د. نقولا زيادة « دمشق فى عصر المماليك » ص ١٩٠.

(٥) ابن الفارض: أبو القاسم عمر، ولد بالقاهرة عام ٥٦٧هـ، لُقب بـ « سلطان العاشقين »، صاغ نظريته فى التصوف فى قصيدته « نظم السلوك » المسماة بـ « التائية الكبرى »، وهى تحتوى على ٧٦١ بيتًا، توفى ٦٣٢هـ، انظر: جوزيف سكاتولين « عمر بن الفارض وحياته الصوفية » ص ٣٧٠، مجلة المشرق، السنة ٦٧، عام ١٩٩٣م.

« ت ٦٣٢هـ »[١] .

ولقد صدرت الفتاوى من علماء مصر والشام بكفر ابن عربى وابن الفارض والقائلين بآرائهم .

« **من علماء مصر** » ـ على سبيل المثال ـ سراج الدين البقلينى[٢] « ت ٨٠٥هـ »[٣] ، وسعد الدين الديرى[٤] « ت ٨٦٧هـ »[٥] ، وابن حجر العسقلانى[٦] « ت ٨٥٢هـ »[٧] ، وبدر الدين العينى[٨] « ت ٨٥٥هـ »[٩] ، وولى الدين العراقى[١٠] « ت ٨٢٦هـ »[١١] .

---

(١) د. مصطفى حلمى « ابن تيمية والتصوف » ص ١٩٩، جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦١، د. محمد حسن « المصطلح الصوفى عند ابن عربى » ص ١١٦، د. عثمان إسماعيل « خطبة الفتوحات المكية لابن عربى » ص ١٣٧، مجلة المشرق ، السنة ٦٤، عام ١٩٧٠م ، جوزيف سكاتولين « عمر بن الفارض وحياته الصوفية » ص ٣٧٨.

(٢) سراج الدين البلقينى : عمر بن رسلان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٠٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٦ ص ٨٥.

(٣) المقبلى « صالح بن مهدى ـ من علماء القرن الحادى عشر ـ » « العلم الشامخ فى إيثار الحق على الأباء والمشايخ » ص ٩٨، مخطوطة بدار الكتب برقم (٢٤٠٢ تصوف) ، عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٧٦، ٢١٥، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٤) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار راس المذهب الحنفى فى عصره ، ولى قضاء مصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٤ ص ٢٥٠.

(٥) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٦.

(٦) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء مصر على المذهب الشافعية ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٢ ص ٣٨.

(٧) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٧٦، ٢١٦.

(٨) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح١٠ ص ١٣١.

(٩) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٦.

(١٠) ولى الدين العراقى : أحمد بن عبد الرحيم ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى عام ٨٢٦هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٠٩.

(١١) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٣٥.

و « **من علماء دمشق** » ـ على سبيل المثال ـ شمس الدين البلاطنسى[١] « ت ٨٦٣هـ »[٢] ، وبرهان الدين الدمشقى[٣] « ت ٨٢٥هـ »[٤] ، وتقى الدين[٥] ابن قاضى عجلون « ت ٩٢٨هـ »[٦] .

وكذلك قام علماء مصر والشام بتصنيف المؤلفات العلمية للرد على أراء ابن عربى الباطلة من القول بالحلول والاتحاد[٧] .

« **فمن علماء مصر** » ، صنّف شمس الدين السخاوى[٨] « ت ٩٠٢هـ » كتابه « القول

---

(١) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(٢) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٧.

(٣) برهان الدين الدمشقى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بدمشق ، وناب فى قضاء الشافعية بها ، توفى عام ٨٢٥هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٦.

(٤) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٣٥.

(٥) تقى الدين ابن قاضى عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، توفى عام ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٦) الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٧) إن مذهب وحدة الوجود الذى قرره ابن عربى فى كتابيه « الفصوص » ، و « الفتوحات المكية » فى صورته النهائية ، ووضع له مصطلحًا صوفيًا كاملًا ، استمده من كل مصدر وسعه أن يستمد منه كالقرآن ، والحديث ، والفلسفة المشائية ، والفلسفة الأفلاطونية ، والغنوصية المسيحية ، ونظرية « اللوغوس » «Logos» لدى فيلون الإسكندرى ، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية ، والقرامطة ، وإخوان الصفا ، ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعها بصبغته الخاصة ، وأعطى لكل منها معنى جديدًا يتفق مع روح مذهبه العام فى وحدة الوجود ، انظر : ابن عربى « خطبة الفتوحات المكية » ص ١٣٤ـ ١٣٧، تحقيق د. عثمان إسماعيل ، مجلة المشرق ، السنة (٦٤) ، عام ١٩٧٠م ، د. محمد حسن « المصطلح الصوفى عند ابن عربى » ص ١٢٥، جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦٥.

(٨) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وصنف مؤلفات عدة ، برع فى علم الحديث ، ولد عام ٨٣١هـ ، توفى ٩٠٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢.

المُنبى عن ترجمة عربى »[*] للرد على أراء ابن عربى الباطلة[1] ، كما صنّف علاء الدين البخارى[2] « ت ٨٤١هـ » رسالة سمّاها « فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين فى الرد على المحيوى ابن العربى » ، هاجم فيها أراء ابن عربى[3] .

أمّا جلال الدين السيوطى[4] « ت ٩١١هـ » فقد صنّف ـ فى البداية ـ كتابه « تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى »[*] ، ذكر فيه أنه لا يجب تكفير ابن عربى لاحتمال دس بعض الكلام فى كتبه ، فضلًا هل قصد ابن عربى بكلامه المعنى المتعارف عليه ، وهذا لا طريق لإثباته ، ولذلك يجب السكوت فى أمره ، مع عدم تداول كتب ابن عربى وإقرائها للمريدين[5] ،

(*) هذا الكتاب مخطوط ببرلين برقم (Spr ٢٨٤٩) ، كما يذكر الدكتور أحمد الطيب ، ولقد أحصى الدكتور أحمد فى ذلك الكتاب (١٣٨) فتوى أصدرها الفقهاء ضد ابن عربى ، وضد كتبه وأفكاره ، وذلك فى مقابل (٣٣) فتوى فقط تدافع عنه ، ولقد اطلع الباحث أحمد عبد الله على ذلك الكتاب ـ بألمانيا ـ ، فوجده منصبًا على مناقشة ابن عربى فى آرائه ، حيث يقول فى المقدمة « فهذا الكتاب مرشد ـ إن شاء الله ـ للصواب ، جمعت فيه من الألفاظ والنصوص المنتقد بها صاحب الفتوحات والفصوص ...» ، ثم يخلص فى نهاية الكتاب إلى نتيجة نهائية بصدد هذه الآراء والقائلين بها حيث يقول « فإن أرادوا بالحلول والاتحاد ما ذكرناه ، فقد ظهر بطلانه ، وإن أرادوا غيره فلابد من البيان ليتمكن الإثبات أو النفى » ، لهذا فالكتاب مناقشة عقائدية ، وليس ترجمة بالمعنى المفهوم للترجمة ، انظر : أحمد عبد الله « الذيل التام على دول الإسلام للسخاوى » ص ٤٢ ، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٦٨م ، د. أحمد الطيب « دراسات الفرنسيين عن ابن عربى » ص ٣٧١ ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية ، كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م .

(١) أحمد عبد الله « الذيل التام على دول الإسلام للسخاوى » ص ٤٢ .

(٢) علاء الدين البخارى : على بن محمد البخارى ، من كبار علماء الهند ، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى ، واستقر بها فترة ، توفى ٨٤١هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣ .

(٣) ابن طولون « المعزة فيما قيل فى المزة » ص ٤ .

(٤) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ١٦٤ .

(*) لقد ذكر السيوطى هذا الكتاب فى كتابه « التحدث بنعمة الله » ، تحت قسم ما ألفه السيوطى فى واقعات الفتاوى ، انظر : السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٢٤ .

(٥) السيوطى « تنبئة الغنى بتبرئة ابن عربى » ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، تحقيق محمد إبراهيم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

ولكن السيوطى عقب ذلك[1] هاجم ابن عربى، وقال عنه «شيخ سوء كذاب»، وهاجم أفكاره[2].

أمّا علماء الشام، فلقد صنّف عالم دمشق برهان الدين البقاعى[3] «ت ٨٨٥هـ» «تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى»، و«تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد»[4]، ورسالته «الرد على فصوص ابن عربى»[5]، حيث دحض البقاعى فى تلك المؤلفات آراء ابن عربى

---

(١) حيث توجد رسالة للسيوطى تحت عنوان «قضية جرت بين السيوطى وبين رجل من أهل الاتحاد»، بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٠٠ تصوف)، ومكروفيلم برقم (٤٠٩١٠)، هاجم فيها السيوطى ابن عربى.

(٢) السيوطى «قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد» ص ٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٠٠) تصوف.

(٣) برهان الدين البقاعى: إبراهيم بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علوم كثيرة مثل التفسير، وعلم الحديث، وصنف مؤلفات عديدة، توفى ٨٨٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٠١، «موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين» ح ٣ ص ٦٧٧، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤) قام عبد الرحمن الوكيل بنشر هذين الكتابين «تنبيه الغبى»، و«تحذير العباد» فى مجلد واحد بعنوان «مصرع التصوف»، وكان منهج البقاعى فى هذين الكتابين لنقد ابن عربى يقوم على أمرين، أولهما نقل نصوص كثيرة من «فصوص الحكم» لابن عربى، وعن «التائية الكبرى» لابن الفارض، ثم يعلق البقاعى على هذه النصوص، ويكشف عما فيها من مجافاة لروح التوحيد، وثانيهما: ذكر فتاوى كبار علماء القرن السابع والثامن والتاسع الهجرى التى هاجمت وكفّرت ابن عربى، انظر: عبد الرحمن الوكيل «مصرع التصوف» ص ١٠، ١١، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٥٢، ٦٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤٩، مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.

(٥) هذه الرسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٥١ مصورات زكية)، ومكروفيلم (٦٠١٩٤)، ذكر فى مقدمتها أن الهدف من تأليفها الرد على ترهات ابن عربى وتنزيه الله ـ عزّ وجلّ ـ وذاته سبحانه من عقائد الاتحاد، والمنهج الذى اتبعه فى نقد آراء ابن عربى هو نقل كلام ابن عربى الذى ورد فى «فصوص الحكم» كما هو، ثم يقوم بتحليل ومناقشة كلامه الذى يحتاج إلى متخصص فى العلوم الشرعية والفلسفية ـ التى يتميز فيها البقاعى ـ، أى محاربة آراء ابن عربى بدراسة عقائده جيدًا، ثم الرد عليها بالقرآن والسنّة من موقع القوة الفكرية للتدليل على فساد عقائده، وهو بذلك يشابهه إلى حد كبير شيخه الحنبلى ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ»، الذى حارب التصوف الفلسفى عن طريق دراسة العقائد الصوفية الفلسفية جيدًا، ثم قام بالرد عليها بالقرآن والسنّة من موقع القوة الفكرية للتدليل على خطأ هؤلاء، =

وأبان اصطدامها بالعقيدة الصحيحة[1].

وكذلك صنف عالم القدس سراج بن مسافر[2] «ت ٨٥٦هـ» كتابًا للرد على أباطيل ابن عربى[3].

وهكذا تصدى علماء مصر والشام لذلك التصوف الفلسفى الذى جاء بآراء ونظريات اصطدمت مع العقيدة الإسلامية كنظرية وحدة الوجود، حيث أصدروا الفتاوى العديدة ضد القائلين بهذه النظريات والذين كان من أبرزهم ابن عربى، وابن الفارض، وأوضحوا فى تلك الفتاوى مدى فساد عقيدة رواد هذه الأفكار؛ حتى ينفض الناس عنهم ولا يتأثروا بأفكارهم، كما قاموا بتصنيف المؤلفات العلمية التى تفند الآراء والأفكار التى دعا إليها هؤلاء المتصوفة، وتوضح مدى اصطدامها مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتبين صلة تلك الأفكار بالفلسفات الهيلينية والفكر الشيعى، والغنوصية المسيحية. فكانوا حقًا حراس للعقيدة الإسلامية ضد ترهات التصوف الفلسفى الذى يمكن أن يميل إليه العامة من المصريين والشاميين، فيفسد عليهم عقيدتهم.

= انظر: البقاعى «رسالة فى الرد على فصوص ابن عربى» ص ١، ٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٦٠١٩٤)، ابن تيمية «مجموع لابن تيمية» ص ٣٨٤ - ٣٩٣، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٠٥٤٥ب) ومكروفيلم (٢١١٤٣)، محمد ماهر «تطور الفكر الكلامى فى بلاد الشام منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجرى»، ص ٢٣، دكتوراة، دار العلوم، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(١) البقاعى «رسالة فى الرد على فصوص ابن عربى» ص ١، ٢، عبد الرحمن الوكيل «مصرع التصوف» ص ١٠، ١١، ١٩، ٤٠، ٦٦، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤٩.

(٢) سراج بن مسافر: تفقه على شيوخ عصره، وكان من كبار علماء القدس، ودرس بها، توفى ٨٥٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٢٤٣.

(٣) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٢٤٣.

* العلماء وتصوف الدراويش[*] والمجاذيب :

لقد كان تصوف الدراويش والمجاذيب[1] فى العصر المملوكى يقوم بالابتداع والزيادة فى التشريع ، والانحراف بالعقيدة الإسلامية عن طريق الغلو فى المشايخ والأولياء[2] وإثبات الكرامات[3] الوهمية[4] لهم ـ كالزواوى المجذوب المصرى « ت ٨٣٥هـ »[5] ، وشهاب الدين الحسبانى الدمشقى ـ المعروف بابن هلال « ت ٨٢٤هـ »[6] ـ ، أولئك الأولياء الذين

(*) **درويش** : تحريف لكلمة درفيش الفارسية ، وهى بمعنى الفقير ، ولكنه بالمعنى الصوفى ، أى ذلك الذى لا يجد غير الله ولا يستغنى إلا به ، وهذا الفقير ليس له إلا شيخه يضعه نصب عينيه ، ويبصر فيه ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامى » ص ٧٢٥، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٩م .

(١) أطلق على هؤلاء الدراويش المجاذيب فى مصر لقب « الحرافيش » ، بينما أطلق عليهم فى دمشق لقب « الفقراء » ، انظر : د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ٣٨ ـ ٤٠، أحمد غسان سبانو « دمشق مقالات مجموعة » ص ١٣٦، دار قتيبة ، « سلسلة دراسات ووثائق دمشق الشام » (٥) ، ١٩٨٥م .

(٢) **الأولياء** : الأولياء فى الإسلام هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، والذين كانوا فى حياتهم عبادًا مخلصين ، قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس : ٦٢ ـ ٦٣] ، أمّا الأولياء عند العامة أو فى المعتقد الشعبى هم قوم من الصالحين ـ حقيقة أو زعمًا ـ من الأموات أو الأحياء خصهم الله بقوى وقدرات خاصة خارقة للطبيعة ، ويعتقد فيهم العامة القدرة على النفع والضر ، ويعتقد العامة أن حماية الولى وبركته تظل تشملهم حتى بعد وفاته ، طالما أنهم يلتزمون بأداء ما عليهم من التزامات وواجبات تجاهه ، تتمثل فى الزيارة ، والمولد ، والنذر ، انظر : غادة السيد « وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى » ص ٢٩، ٣٠.

(٣) **الكرامة** : الكرامة لاحقة بمعجزات نبينا محمد ﷺ لأن كل من ليس بصادق فى الإسلام تمتنع عليه الكرامات ، فكل نبى ظهرت له كرامة على واحد من أمته ، فهى معدودة من جملة معجزاته إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقًا لم تظهر على من تابعه المعجزة يعنى التى هى الكرامة لهذا الواحد ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامى » ص ٧٧٩.

(٤) كادّعاء هؤلاء الصعود إلى السماء ، ومعرفتهم ما فى أرحام النساء وغير ذلك ، انظر : السيوطى « قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد » ص ٦، ٧، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٨.

(٥) أحمد صبحى « العقائد الدينية » ص ٢٧٤.

(٦) د. سعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق » ص ٣٤٨.

وصفتهم المصادر التاريخية بأنهم صاروا كسقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة[١] .

كذلك نسبت المصادر التاريخية لهؤلاء الدراويش والمجاذيب كثيرًا من المنكرات ، والتى منها ، أنهم كانوا يثقبون آذانهم ويوصلون شعورهم ويضعون الأطواق فى أعناقهم تبعًا لشيوخهم[٢] ، وكذلك ما كانوا يقومون به فى المساجد والزوايا من السماع[٣] والرقص وضرب الدف وغير ذلك من المنكرات[٤] ، فضلًا على إحياء موالد الأولياء التى بها قبر الولى ، ولقد كانت تلك الموالد يحدث بها المنكرات من تهتك وفضائح خلقية[٥] ، كما عرف عن هؤلاء الدراويش تعاطيهم الحشيش بشراهة[٦] .

---

(١) الشعرانى « رسالته فيمن يدعى المشيخة والولاية » ص ٢، ١٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٧٧٧ تصوف) ، ومكروفيلم برقم (٣٧٣٥٧) ، السيوطى « قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد » ص ٦، ٧.

(٢) ابن بيدكين « اللمع فى الحوادث والبدع » ص ٢٠، ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٧٣٠ مكروفيلم) ، محمد بن إبراهيم الدمشقى « النور المبين فى الوعظ المتين » ص ٣٤٦ ـ ٣٥٠.

(٣) **السماع** : المقصود به فى المصطلح الصوفى الإنشاد الذى ينطق فيه بكلمات غير مفهومة ، ويصاحبه الضرب بالدف ، والرقص بشكل هستيرى ، وكان ذو النون المصرى « ت ٨٥٩م » ، أول من ابتدع هذا الأمر الذى بلغ أوجه مع الدراويش الجوالين أيام جلال الدين الرومى « ت ١٢٧٣م » ، وانتشر فى العالم الإسلامى بكامله ، ولقد حرم العلماء هذا السماع وعدّوه من البدع المذمومة ، انظر : تقى الدين الحصنى « ت ٨٢٩هـ » « سير السالك فى أسنى المسالك » ص ١٦٥، ابن الحاج « المدخل » ح ٣ ص ٩٩، السيوطى « تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية » ص ٩٥، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م ، جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ١١٢، د. رفيق العجم « مصطلحات التصوف الإسلامى » ص ٤٨١.

(٤) ابن بيدكين « اللمع فى الحوادث » ص ٤٤، مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ٢٨٠، طارق محمد المرسى « الزوايا فى العصر المملوكى بالقاهرة : دراسة أثرية حضارية » ص ٢٦٠، ماجستير ، كلية الآثار ، القاهرة .

(٥) السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٧٦، ٢٢٠، ابن بيدكين « اللمع فى الحوادث » ص ٧٦، ابن الحاج « المدخل » ح ٣ ص ٩٩، ابن شاهين « نيل الأمل » ح ٧ ص ١٢١.

(٦) بدر الدين الزركشى « زهر العريش فى تحريم الحشيش » ص ١، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان » ص ٣٨ ـ ٤٠، د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٣٤، شلبى إبراهيم « طبقة العامة =

وكان من أشهر طوائف الدراويش ـ بمصر والشام ـ التى عرف عنها تلك القبائح فى العصر المملوكى طائفة القلندرية[١] ، وطائفة الحيدرية[٢] .

ولقد قام علماء مصر والشام بمحاربة بدع هؤلاء الدراويش ومفاسدهم ، ففى عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م قام السلطان جقمق[٣] بحبس وتعزير[٤] طائفة من مجاذيب الصوفية ـ

= فى مصر فى العصر الأيوبى » ص ١٥٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، « سلسلة تاريخ المصريين » ، (برقم ٢١٢) ، ٢٠٠٣م .

(١) **القلندرية** : تنسب تلك الطائفة إلى جمال الدين الساوجى ـ محمد بن يونس ـ ، كان من صوفية العراق ، قدم إلى دمشق فى القرن السابع الهجرى ـ فى حدود العشرين وستمائة ـ ، ثم سافر إلى دمياط ، واعتقده الناس هناك ، وبها توفى فى حدود سنة ٦٣٠هـ ، وانتشر أتباعه بعد وفاته بمصر والشام خلال العصر المملوكى ، ولقد أفتى ابن تيمية بأن هؤلاء القلندرية هم أهل ضلالة ، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله ، وقد يكون فيهم من هو مسلم ، ولكنه مبتدع ضال أو فاسق فاجر ، انظر : ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٣٥ ص ١٦٣، النعيمى « عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ » « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢١٠، تحقيق جعفر الحسنى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، د. محمد مؤنس «دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب» ص ٩٣، ٩٤.

(٢) **الحيدرية** : مؤسس تلك الطائفة قطب الدين حيدر ، الذى لا يعرف عنه سوى القليل ، وترجع أصوله إلى خراسان ، ولقد ظهرت تلك الطائفة ببلاد الشام فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وكان من شعارهم لبس الفراجى والطراطير ، ويحلقون لحاهم ويتركون شواربهم ، وذلك متابعة لشيخهم قطب الدين حيدر ، وكانت سلوكيات تلك الطائفة تتشابه بسلوكيات طائفة القلندرية ، ولقد كان لهؤلاء الحيدرية أتباع بمصر والشام فى العصر المملوكى ، انظر : النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢١٢، د. آدم صبرة « الفقرة والإحسان » ص ٥٢، ٥٣، د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٢٤٧.

(٣) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٤) **التعزّير** : لغة ـ بتشديد الزاى ـ يُطلق على التأديب والمنع ، وفى الاصطلاح العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها كتطفيف المكيال ، وجرائم الزندقة التى لم يتمكن القاضى من إثباتها على المتهم ، ومن وسائل التعزير الجلد والسجن ، انظر : ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ص ١١١، دار الكتاب العربى بمصر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م ، د. عبد الله محمد « أكثر ما قيل فى التعزير بالجلد والسجن وبدائل السجن » ص ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، مقال بمجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، السعودية ، العدد (٦٩) عام ١٤٢٤هـ .

عرفت باسم المطاوعة ـ ظهرت فى مدينة الشرقية[١] ، وذلك بعد أن خاطب علماء مصر ـ أمثال ابن حجر العسقلانى[٢] ، وسعد الدين الديرى[٣] ـ السلطان جقمق فى شأن هذه الطائفة ، وطالبوه بردعهم ، حيث ارتكبت مفاسد كثيرة ، كالرقص والتصفيق بالمساجد ، وارتكابهم الانحرافات الخُلقية وغير ذلك من القبائح[٤] .

كما حكم بدر الدين البغدادى[٥] ـ قاضى الحنابلة بمصر ـ عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م بمنع جماعة من هؤلاء الدراويش من الرقص والغناء فى الزوايا والمساجد[٦] .

كما تذكر المصادر التاريخية أن السلطان جقمق[٧] عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م قام بإبطال المولد الأحمدى[٨] نظرًا للمفاسد التى كانت تحدث فيه من تعاطى الخمور والانحرافات الخلقية ، وذلك بعد أن خاطب العلماء ـ أمثال ابن حجر العسقلانى ، وبرهان الدين البقاعى[٩] ـ السلطان

---

(١) **الشرقية** : عمل من أعمال الوجه البحرى ، وهو متصل البر ببرِّ الشام والقُلْزُم ، والحجاز ، وكذلك أُشْمُوم ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٩٩.

(٢) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٢٦٠.

(٣) سعد الدين الديرى : انظر : ص ٢٦٠.

(٤) السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٠٤، ١٠٥.

(٥) بدر الدين البغدادى : محمد بن محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، درس ، توفى عام ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٤٩، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٦٨١.

(٦) السخاوى « وجيز الكلام » ص ٦٢١.

(٧) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٨) **المولد الأحمدى** : نسبة إلى السيد أحمد البدوى ، وهو أحمد بن على ، ولد بمدينة فاس ٥٩٦هـ ، ثم هاجر مع والده إلى مكة ، واستقر بها ٦٠٧هـ ، ثم رحل إلى العراق ٦٣٤هـ ، ثم إلى مصر عام ٦٣٥هـ ـ تقريبًا ـ ، ولقب بألقاب عدة منها « السيد » ، و « الشريف » ، و « البدوى » ، توفى ٦٧٥هـ ، انظر : غادة سيد « وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى » ص ٢٢ ـ ٣٠.

(٩) برهان الدين البقاعى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٨٥هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ح ٢ ص ٥١.

جقمق فى ذلك الأمر[1].

كما أفتى علماء مصر أمثال ـ جلال الدين السيوطى[2] «ت ٩١١هـ»، وزكريا الأنصارى[3] «ت ٩٢٦هـ»، وعلماء الشام أمثال ـ تقى الدين البلاطنسى[4] «ت ٩٣٦هـ»، وتقى الدين ابن قاضى عجلون[5] «ت ٩٢٨هـ»، بتحريم السماع[6] والرقص الذى كان يقوم به أولئك الدراويش بالزوايا والمساجد، وصرحوا بأن ذلك بدعة مذمومة لا يقرها الشرع[7].

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم لتصوف الدراويش والمجاذيب الذين أحدثوا كثيرًا من المنكرات، التى كان منها ما يقومون به فى المساجد والزوايا من السماع، والرقص، وضرب الدف، فضلًا عما كانوا يقترفونه فى موالد الأولياء من تهتك وفضائح خلقية، حيث خاطب العلماء السلطة بردع تلك الطوائف كما حدث مع طائفة المطاوعة، كما أصدر القضاة أوامرهم بمنع هؤلاء الدراويش من فعل المنكرات التى كانوا يحدثونها فى المساجد من السماع والرقص ونحو ذلك، كما خاطبوا السلطة بمنع هؤلاء الدراويش من إحياء موالد الأولياء لما كان يحدث بها من منكرات، كما أصدروا الفتاوى العديدة التى

---

(١) السخاوى «التبر المسبوك» ص ١٧٧، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٠٨، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ١، البقاعى «إظهار العصر».

(٢) جلال الدين السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وصنف مصنفات عديدة، توفى عام ٩١١هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ٣١٥.

(٣) زكريا الأنصارى: زكريا بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٩٢٦هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ١٩٦.

(٤) تقى الدين البلاطنسى: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، حتى صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره، درس وأفتى، توفى ٩٣٦هـ، انظر ابن المبرد «متعة الأذهان» ص ٢٢٠.

(٥) تقى الدين ابن قاضى عجلون: انظر: ص ٢٦١.

(٦) السماع: انظر ص ٢٦٦.

(٧) زكريا الأنصارى «فتاوى زكريا الأنصارى» ص ٣٠٦، البلاطنسى «فتاوى البلاطنسى» ص ١٨٨ ـ ١٩٣، السيوطى «الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع» ص ١١١، دار الاستقامة، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

تحرم بدعة السماع التى ابتدعها هؤلاء فى المساجد، وتبين أنها بدعة مذمومة لا يقرها الشرع. وبذلك طهروا المجتمع من الممارسات المنحرفة لهؤلاء الطوائف، حيث أغلقوا منافذ الفساد أمام تلك الطوائف، وحدوا من وجودها وانتشارها فى المجتمع بكل حزم.

ب ـ العلماء والزنادقة[1]:

اتخذت حركة الزندقة فى العصر المملوكى أشكالًا عديدة، بين الإلحاد فى الله، ومزج الإسلام بالعقائد الوثنية، والتهكم بتعاليم الإسلام، وإباحة المحرمات، ولقد تصدى العلماء لهؤلاء الزنادقة بقوة وحزم، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م، أنه ورد الخبر من قرية ططية ـ بالوجه الغربى من أعمال القاهرة ـ أن بها جماعة من الزنادقة، منهم من ادّعى الألوهية، ومنهم من ادّعى النبوة، ولقد انضم إليهم جماعة من أوباش الناس، مالوا إلى معتقداتهم، فأرسل لهم السلطان خشقدم[2] القاضى ابن عبد الوارث[3]،

---

(١) **الزندقة**: قيل أنها تعريب لكلمة فارسية، وإن اختلفوا فى هذه الكلمة هل هى «زند» وهى اسم كتاب مزدك الذى جاء بتفسير جديد للأفستا ينحرف به عن ظاهر التنزيل، أو هى «زندى» أى الذى يؤمن بالزند أو كتاب زرادشت، أو هى «زندكرد» أى القائل ببقاء الدهر، أ، هى «زنده كرد» أى عمل الحياة وبقاء الدهر، ومن المرجح أنها معربة عن كلمة «زندة» أو «زنديك» على أساس إبدال الهاء أو الكاف قافًا كما هى العادة، وقد أطلق العرب كلمة زنديق على من يؤول نصوص القرآن أو الحديث تأويلًا يخالف المعنى الطبيعى مخالفة غير معقولة أو تأويلًا منافيًا للأصول الاعتقادية، ويطلق الإمام الغزالى كلمة زنديق على من ينكر وجود الله أو على المشرك أو على من ينكر الحكمة الإلهية أو على من لا يتدين بدين، أو على من ينكر الحياة الآخرة وما فيها، أو على من يقول بقدم العالم وأزليته، ولعل أول جهاز حكومى يخصص لمقاومة الزندقة فى تاريخ الدولة الإسلامية هو الديوان الذى أنشأه المهدى العباسى وأطلق على رئيس هذا الديوان اسم «صاحب الزنادقة»، وكان الهدف من هذا الديوان تتبع الزنادقة وقتلهم، انظر: إسماعيل صبرى «موسوعة العلوم السياسية» ص ١٤٦، د. جيرار جهامى «موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب» ص ٣٣٤، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١ (١٩٩٨م)، د. محفوظ عزام «الموسوعة الإسلامية العامة» ص ٧٣٤.

(٢) خشقدم: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٢

(٣) ابن عبد الوارث: عبد الرحمن بن عبد الوارث، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى نيابة القضاء=

فقام بتعزيرهم[1] ، ثم حبسوا ، وتم القضاء على حركتهم وأفكارهم[2] .

كما تذكر المصادر التاريخية[*] عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أنه رُفع إلى قاضى الشافعية[3] جلال الدين البلقينى[4] دعوى[5] أن شخصًا يقال له أبو بكر الغزولى قدح فى الأنبياء ـ

= بمصر ، توفى عام ٨٦٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٩٠.

(١) **التعزّير** : لغة ـ بتشديد الزاى ـ يُطلق على التأديب والمنع ، وفى الاصطلاح العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها ، كتطفيف المكيال ، وجرائم الزندقة التى لم يتمكن القاضى من إثباتها على المتهم ، ومن وسائل التعزير الجلد والسجن ، انظر : ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ص ١١١، دار الكتاب العربى ، مصر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م ، د. عبد الله محمد « أكثر ما قيل فى التعزير بالجلد والسجن وبدائل السجن » ص ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، مقال بمجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، السعودية ، العدد (٦٩) عام ١٤٢٤هـ .

(٢) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ٤٢١، البقاعى « إظهار الهصر » .

(*) لم توضح لنا المصادر التاريخية معلومات تفصيلية عن هؤلاء الزنادقة وأماكن تواجدهم بالتحديد ، وتأثير أفكارهم على العامة ، فقد جاءت المعلومات عنهم مقتضبة موجزة .

(٣) كانت دعاوى الزندقة فى العصر المملوكى ترفع إلى قاضى المالكية بشكل عام ، وذلك ما يظهر فى وصية شهاب الدين العمرى إلى قاضى المالكية حيث خصّه بقوله ـ دون الشافعى والحنفى والحنبلى ـ « مذهبه له السيف المصلت على من كفر والمذهب بدم من طل دمه ، وحصل به الظفر ، ومن غدا قدره الوضيع وتعرض إلى أنبياء الله بالقول الشنيع ، فإنه إنما يقتل بسيفه المجرد ، ويراق دمه تعزيرا ، بقوله الذى له تفرد ، ولم يزل سيف مذهبه لهم بارز الصفحة مسلمًا لهم إلى مالك خازن النار من مذهب مالك الذى ما فيه فسحة ، وعليه بالثبوت والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت ، وإنما هو رجل يحيا أو يموت ، فليتمهل قبل بت القضا » ، انظر : العمرى « التعريف بالمصطلح الشريف » ص ١٢٠، ١٢١، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ .

(٤) جلال الدين البلقينى : عبد الرحمن بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٢٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٠٦.

(٥) **دعوى** : لغة : التمنى والطلب ، واصطلاحًا قول يطلب به الإنسان إثبات حق على الغير فى مجلس القاضى أو المحكم ، وأركانها ـ عند الحنفية ـ هى نفس الإخبار عن ذلك الحق ، وعند غيرهم ثلاثة مُدعى وهو من إذا ترك دعواه ترك ، ومدعى عليه ، وهو من إذا ترك الخصومة لم يترك ، ومدعى به ، وهو الشىء الذى ادعاه المُدعِى ، والأصل فى الدعوى الإباحة ، وقد تحرم إذا كانت بباطل ، أو بغرض التشنيع ، والأصل فى مشروعيتها ما رواه البخارى عن النبى ﷺ « لو يعطى الناس بدعواهم ، لذهب دماء قوم =

عليهم السلام ـ، وقال إنهم عرايا من العلم ونحو ذلك من القبائح، فقام القاضى[1] بتعزيره[2].

وفى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م نُسب إلى شخص يُدعى علىّ بن أخى قطلو خجا أنه سبّ الله ـ عزّ وجلّ ـ والنبى ﷺ، فقام قاضى الحنفية سعد الدين الديرى[3] بضرب عنقه بعد إقامة البينة عليه[4].

أمّا بلاد الشام[*]، ففى حلب عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م أرسل علماء حلب إلى السلطان شيخ[5] بأنه ظهر بحلب رجل يُدعى نسيم الدين التبريزى ينكر الألوهية، ويطعن فى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فأرسل السلطان مرسومًا إلى نائب حلب بقتل هذا الزنديق، وتم قتله فى ذات العام[6].

وفى حلب عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م ظهر شخص يُدعى حيداد قاسم يدعو بدعوة نسيم الدين التبريزى ـ السابق ذكره ـ، فأرسل السلطان جقمق[7] مرسومًا بمعاملته بما يوجبه

= وأموالهم، اليمين على المدعى عليه»، انظر: طوغان شيخ «ت٨٨١هـ» «المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية» ص٤٣، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، د. أحمد يوسف سليمان «الموسوعة الإسلامية العامة» ص٦٤٤، عثمان على «مجالس الشورى وأثرها فى سياسة الدولة والمجتمع المصرى زمن سلاطين المماليك» ص ٢٠١، دكتوراة، دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(١) ما ذكرته المصادر التاريخية من تعزيره، والذى يكون بالجلد أو السجن ـ كما سبق فى توضيح مفهوم التعزير ـ، يعنى أن الدعوى بأنه سب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم تثبت عليه، وإلا تم قتله، حيث حكم العلماء على من قام بسبّ النبى محمد ﷺ بالقتل، انظر: ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ٢ ص ٢٢٨، ٣٣٠.

(٢) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٩٣.

(٣) سعد الدين الديرى: انظر: ص ٢٦٠.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥.

(*) لم توضح لنا المصادر التاريخية معلومات تفصيلية عن هؤلاء الزنادقة ببلاد الشام، كأماكن تواجدهم بالتحديد، وتأثير أفكارهم على العامة، فقد جاءت المعلومات عنهم مقتضبة موجزة.

(٥) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٦) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٢٦٩.

(٧) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١١.

الشرع ، فحكم علماء حلب بإهدار دمه ، وتم قتله[١] .

وفى دمشق ، تذكر المصادر التاريخية عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م أن علماء دمشق أمثال ـ علاء الدين البخارى[٢] « ت ٨٤١هـ » ـ تصدوا لعقائد وأفكار النسيمية[٣] ، والتى منها إنكار الألوهية ، والطعن فى الأنبياء ، وكشف العلماء فساد تلك العقائد والأفكار[٤] .

كما جاهد علماء مصر أمثال سعد الدين الديرى[٥] « ت ٨٦٧هـ » ، وعلماء الشام أمثال علاء الدين البخارى[٦] « ت ٨٤١هـ » ، بأقلامهم حركة الزندقة ، فصنّف سعد الدين الديرى كتابه « السهام المارقة فى الرد على الزنادقة »[٧] ، وصنّف علاء الدين البخارى كتابه « الملجمة[*] للمجسمة »[٨] .

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم لحركة الزندقة التى كان يقوم بها بعض الجماعات والأشخاص ، فمن ثبت عليه الإلحاد فى الله ، أو ادعائه للنبوة ، وقدحه فى الأنبياء يقوم القضاة ـ بعد إقامة البينة عليه ـ بضرب عنقه حدًا ، فيرتدع من تسول له نفسه فعل ذلك ، أمّا من لم يثبت عليه البينة بالإلحاد والقدح فى الأنبياء ، ولكن عرف عنه التهكم على بعض الشعائر الإسلامية ، فيقوم القاضى بتعزيره بالجلد أو السجن .

---

(١) ابن العجمى : « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٦٨.

(٢) علاء الدين البخارى : على بن محمد ، من كبار علماء الهند ، رحل إلى دمشق فى العصر المملوكى ، ومكث بها حتى وفاته عام ٨٤١هـ ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣.

(٣) نسبة إلى نسيم الدين التبريزى الذى قُتِل بحلب عام ٨٢٠هـ ـ كما سبق القول ـ .

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٣٥٢.

(٥) سعد الدين الديرى : انظر : ص ٢٦٠.

(٦) علاء الدين البخارى : انظر : ص ٢٦٢.

(٧) ابن طولون « الغرف علية فى تراجم الحنفية » ص ٣٣١.

(*) هذه الكتب التى صنفها العلماء فى هذا المجال ذكرها المؤرخون فى ثنايا تراجمهم لهؤلاء العلماء ، ولم يتيسر للباحث الحصول على تلك المؤلفات سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة .

(٨) ابن طولون « المعزة فيما قيل فى المزة » ص ٤.

وبذلك يصان المجتمع من تلك الأفكار الهدامة التى يدعوا إليها هؤلاء والتى لو تركت ، فقد تجد صدى لدى بعض ضعاف العقيدة والإيمان ، وحينئذ يفقد المجتمع المسلم تماسكه وقوته ويدب فيه معاول الهدم والانحلال .

كذلك قام العلماء بأقلامهم بمجاهدة حركة الزندقة وأفكارهم ، وبيان مدى فسادها وعواقبها الوخيمة لمن اعتنقها .

جـ ـ العلماء وغلاة الشيعة(*) :

إن المذهب الشيعى كان منتشرًا فى صعيد مصر كمدينة قوص(١) ، طوال العصر الأيوبى والمملوكى ، ويرجع ذلك إلى أن الصعيد كان منفى وملجأ للخارجين على سلطة الدولة من أنصار الفاطميين ، ومعتنقى المذهب الشيعى ، ولم يحدث صدام بين الشيعة وبين أهل السنّة فى القرن التاسع ـ فيما أطلعت عليه من مصادر ـ ، واقتصر التشيع لدى العامة فى مصر على حُبّ أهل البيت ، وإقامة الموالد لرموز الشيعة الفاطميين مثل سيدنا الحسين(*) ، والسيدة زينب(٢) .

(*) الشيعة قسمين ، غلاة كالسبئية والكيسانية ، والكاملية ، ومعتدلة وهم الإمامية الاثنا عشرية ، والزيدية ، انظر : د. فاطمة محجوب « الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية » مج ٤٨ ص ٣٨، دار الغد العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

(١) **قوص** : هى من أكبر ولايات الصعيد فى عصر سلاطين المماليك ، إذ أنها تشمل من البلاد ـ حاليًا ـ محافظتى قنا وأسوان ، وجزء من محافظة سوهاج ، انظر : عبد الفتاح « قوص فى عصر سلاطين المماليك » ص ٢٢، ماجستير ، آداب سوهاج ، ١٩٩٠م .

(*) جزم العالم ابن تيمية بكذب المشهد المضاف إلى سيدنا الحسين بن علىّ بن أبى طالب بمصر ، انظر : ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٤٤٦، ٤٥١.

(٢) د. محمد زغلول « الأدب فى العصر المملوكى » ص ٣٢٨، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٤م ، شلبى إبراهيم « طبقة العامة فى مصر فى العصر الأيوبى » ص ١٦٧، ١٦٨، عبد الفتاح « قوص فى عصر سلاطين المماليك » ص ٢٢٦، أحمد كامل «مصر بين المذهب السنى والمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى» ص ١٧٦ وما بعدها ، دكتوراة ، دار العلوم ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، محمد خليل أحمد «إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك» ص ٢٤٨، ماجستير ، معهد الدراسات الإسلامية ، وزارة التعليم العالى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٢م .

أمّا بالنسبة لبلاد الشام، ففى دمشق توجد الفرق الشيعية المعتدلة كالإمامية[1]، والزيدية[2]، والمتطرفة المتركزة خاصة فى المناطق الجبلية، كالنصيرية[3]، والدروز[4] [5].

---

(١) **الإمامية**: الشيعة الإمامية، فرقة من المسلمين الذين تمسكوا بحق سيدنا علىّ بن أبى طالب فى وراثة الخلافة بعد النبى ﷺ، ومن بعد علىّ بن أبى طالب فى أولاده حتى الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى، وهم إن خالفوا جماعة المسلمين فى عرض المسائل إلا أن مخالفتهم لا تخرجهم عن ملة الإسلام، لأنهم يعترفون بالعقائد الإسلامية وقواعد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، انظر: تقى الدين عبد الرحمن «ابن ناظر الجيش» «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف» ص ١٦٤، تحقيق رودلف فسلى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م، د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» ح ٦ ص ٥٢، د. موسى الموسوى «الشيعة والتصحيح» ص ٩، دار الزهراء، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) **الزيدية**: كان أصحاب هذه الفرقة يقيمون فى دمشق غربى باب توما بين النصارى وأهل السنّة، بالإضافة إلى إقامتهم فى قرى كثيرة كداريا وغيرها، انظر: إبراهيم حامد «نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك» ص ٣١٤، ماجستير، دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠٠٠م.

(٣) **النصيرية**: فرقة متطرفة من الشيعة، يذكر القلقشندى أنهم أتباع نصير غلام على بن أبى طالب، بينما يذكر باحثون آخرون أنهم يرجعون بتسميتهم إلى محمد بن نصير النصيرى الذى ظهر أيام الحسن العسكرى، وهم يعتقدون بالأقانيم الثلاثة علىّ بن أبى طالب ويمثل روح الله ـ فى رأيهم الفاسد ـ، وسيدنا محمد ﷺ هو المظهر الخارجى لروح الله، وسلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ حامل كتابه، وهم يألهون علىّ، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وقد كان المماليك يعتبرونهم كفرة، ويفرضون عليهم ما يسمى بـ«درهم الرجال»، وهو يشبه إلى حد ما الجزية المأخوذة من أهل الذمة، انظر: ابن ناظر الجيش «تثقيف التعريف» ص ١٦٢، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٨، العمرى «التعريف بالمصطلح» ص ١٥٦.

(٤) **الدروز**: هم أتباع أبى محمد إسماعيل الدرزى، وهم يقولون برجعة الحاكم بأمر الله الفاطمى، وأن الألوهية انتهت إليه وتدبّرت ناسوته، وهو يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه، وشأنهم شأن النصيرية فى استباحة فروج المحارم وغيرهم، وهم أشد كفرًا ونفاقًا منهم، وينكرون الميعاد، وقد أفتى ابن تيمية بقتالهم، انظر: ابن ناظر الجيش «تثقيف التعريف» ص ١٦٥، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٩.

(٥) ابن طوق «يوميات ابن طوق» ص ٧١٧، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٨٢، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩، إبراهيم حامد «نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك» ص ٣١٤.

obeikandi.com

ولم توضح المصادر التاريخية خلال القرن التاسع(*) ـ فيما اطلعت عليه من المصادر ـ طبيعة العلاقة بين أهل السنّة بدمشق وتلك الفرق الشيعية المعتدلة منها أو المتطرفة، باستثناء حادثتين ذكرتهما المصادر التاريخية يكشفا بعض ملامح تلك العلاقة بين أهل السنّة والشيعة الإمامية.

أولهما عام ٨٩٢هـ/١٤٨٦م، عندما أمر السلطان قايتباى(١) بهدم مسجد للشيعة الإمامية ـ الذى يقع عند باب جيرون(٢)، وذلك بعد أن طالب علماء دمشق ـ أمثال تقى الدين ابن قاضى عجلون(٣) ـ بإغلاق هذا المسجد، حيث اتخذه الشيعة مركزًا لدعوتهم، ونشر أفكارهم التى تعرضوا فيها للصحابة والخلفاء الراشدين، وتم هدم ذلك المسجد الذى أثار ثائرة أهل السنّة(٤).

وثانيهما عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م زار بعض أعيان الشيعة الإمامية من العراق دمشق، واجتمعوا بأعيان شيعة دمشق، ودارة مناقشات بينهم تعرضوا فيها للصحابة، فقام عليهم علماء دمشق، وطالبوا نائب دمشق قانصوه اليحياوى(٥) بردعهم، فاستجاب لهم

(*) حيث أشارت المصادر التاريخية فى القرن الثامن إلى الصراع الفكرى بين ابن تيمية وتلك الفرق الشيعية المتطرفة كالدروز.

(١) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢.

(٢) **باب جيرون**: هو الباب الشرقى للجامع الأموى، وهو أعظم أبواب المسجد، ويسمى ـ أيضًا ـ باب النوفرة، وباب الساعات، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٩١، البوريني «الحسن بن محمد «ت ١٠٢٤هـ»» «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» ص ٣٢٦، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، ١٩٥٩م، د. صلاح الدين المنجد «باب جيرون» ص ٤٣، مجلة المشرق، السنة (٤٣)، عام ١٩٤٩م.

(٣) تقى الدين ابن قاضى عجلون: انظر: ص ٢٦١.

(٤) النعيمى «مذكرات يومية» ص ١٣٠، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق، برقم (٤٥٣٣ عام)، ابن طوق «يوميات ابن طوق» ص ٧١٧، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٨٢، السخاوى «الذيل التام» ص ٣٨١، د. صلاح الدين المنجد «باب جيرون» ص ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(٥) قانصوه اليحياوى: ولى نيابة دمشق عام ٨٨٤هـ، ثم عزل عام ٨٨٦هـ، ثم تولى عام ٨٩٢هـ، كانت سيرته سيئة، توفى عام ٩٠٢هـ، انظر: ابن طولون «إعلام الورى» ص ٧٢.

النائب[1] ، وفى هاتين الحادثتين السابق ذكرهما يظهر مدى السطوة والنفوذ لأهل السنّة وعلماءها بدمشق ومحدودية القوة والفعالية للشيعة الإمامية بدمشق .

وفى حلب ، تذكر المصادر التاريخية أن شرف الدين أبو المكارم[2] ـ خطيب حلب ـ كان يتصدى[*] لأفكار ومعتقدات غلاة الشيعة[3] .

وهكذا يظهر لنا من تلك الحوادث والإشارات التاريخية القليلة فى هذا الشأن ـ خلال القرن التاسع ـ أن علماء السنّة تصدوا لمحاولات الشيعة الإمامية لنشر أفكارها التى تخالف رأى أهل السنّة والجماعة ، فقاموا بإغلاق أحد مراكزهم الدعوية عند باب جيرون ، كما قاموا ـ من خلال السلطة المملوكية ـ بمنعهم من عقد المجالس الحوارية والنقاشية التى يعلنون فيها آرائهم وأفكارهم ، حتى لا يتأثر بهذه الآراء العامة ، وينخدعوا بها .

(١) سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٣٣٢.

(٢) شرف الدين أبو المكارم : محمد بن عمر بن الشيخ شرف الدين أبى المكارم ، كان يخطب ويعظ بحلب ، توفى عام ٩٣٩هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب » ح ٢ ص ٦٤.

(*) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة هذا التصدى ، ونتائجه ، حيث جاءت المعلومات فى هذا الشأن موجزة مقتضبة فى ثنايا ترجمة هذا العالم .

(٣) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٦٤.

obeikandl.com

٢ ـ العلماء ومحاربة البدع

* الاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان :

من البدع[١] التى عانى منها المجتمع المصرى والشامىّ الاعتقاد فى التنجيم[٢]، والسحر[٣]، والجان، حيث شاع بين المصريين والشاميين الاعتقاد فى هذه الأمور، وكثر ترددهم على هؤلاء المنجمين والدجالين[٤].

---

(١) **البدعة** : هى فعل ما لم يُعهد فى عصر الرسول ﷺ، وهى منقسمة إلى بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، والطريق فى معرفة ذلك أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة فإن دخلت فى قواعد الإيجاب فهى واجبة، وإن دخلت فى قواعد التحريم فهى محرمة، وهكذا، انظر: العز بن عبد السلام «قواعد الأحكام فى مصالح الأنام» ح ٢ ص ١٩٥، المكتبة الحسينية، القاهرة، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، السيوطى «الأمر بالاتباع» ص ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) **التنجيم** : هو النظر فى الكواكب والنجوم، وحساب حركاتها، واستخدام ذلك فى ادعاء معرفة الغيب، واستطلاع أقدار الناس وآجالهم وأرزاقهم، ولقد نهى الإسلام عن التنجيم، واعتبر الإيمان به كفرًا، وهؤلاء المنجمين الذين يفعلون هذه الأفعال هم أهل تلبيس وكذب وخداع، انظر: ابن أبى العز الحنفى «على بن محمد ت ٧٩٢هـ» «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٤٣٤، ٤٣٦، تحقيق أيمن محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، «د. ت»، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٣٥ ص ١٧٢، ١٩١.

(٣) **السحر** : وجود السحر لا خلاف فيه بين العلماء، فلقد تحدث عنه القرآن الكريم والسنّة النبوية، إلا أنه من الملاحظ أنه ليس هناك إجماع على ماهية السحر، فالبعض يرى أنه مجرد خيال لا حقيقة له، والبعض يرى أن له حقيقة وله تأثير على الناس، ولكن ما مدى تأثيره، هل يغير الواقع، ويقلب الشىء عن حقيقته إلى حقيقة أخرى، وينشئ شيئًا من العدم؟، أم هو مجرد تأثير فى الحواس والقوى المتخيلة، كما ترى العين ماء وهو ليس بماء؟، أم يجمع بينهما؟، ويتفق العلماء أن حدّ الساحر هو القتل، ولمزيد من الإيضاح، انظر: ابن أبى العز الحنفى «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٤٣٦، محمد أبو عاقلة «السحر وموقف الإسلام منه» ص ١٥٢، ١٥٥، ٢٢٠، ماجستير، كلية أصول الدين ـ قسم العقيدة والفلسفة، جامعة الأزهر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٤) مجدى عبد الرشيد «القرية المصرية» ص ٢٤٧، د. عادل عبد الحافظ «نيابة حلب» ص ٢٣٦، إسماعيل عبد المنعم «الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية» ص ٢٩٤ ـ ٣٢٠، محاسن =

ولقد كافح علماء مصر والشام لإزالة تلك البدعة، فلقد صنّف العالم جلال الدين السيوطى[١] كتابه «لقط المرجان فى أحكام الجان» للرد على هؤلاء الدجالين الذين ادّعوا قدرتهم على تسخير الجان، واستخدامه فى شتى الأغراض، حيث بيّن حقيقة الجن فى الإسلام، وأنه كعالم الملائكة من المغيبات التى أُمر الإيمان بها[٢]، ثم يكشف زيف من يدعون علمهم بالغيب من الكهان من خلال الجن، حيث يوضح السيوطى بالأدلة الشرعية أنه ببعثة الرسول ﷺ انتهى ذلك الأمر[٣]، كما يوضح أن السبيل الوحيد للحماية من أذى الجن ووساوسه هو قراءة القرآن، والصلاة، والدعاء، وليس بما يقوله الكهان، وما يقدمونه من تمائم[٤].

وفى دمشق عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م عندما ادّعى أحد الدجالين أنه رأى فى المنام أن كبير الجان قال لامرأة أنه من لم يضع الحناء سيصاب بمرض، فاشتهر ذلك بين الأهالى، فأنكر علماء[*] دمشق ذلك الأمر[٥].

كما قام كمال الدين الحموى[٦] بالتصدى[٧] لأحد هؤلاء الدجالين الذى كان أهالى

= محمد «الطبقات الدنيا فى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢١٥ ـ ٢١٨، ماجستير، آداب عين شمس، أحمد صبحى «أثر التصوف فى مصر فى العصر المملوكى» ص ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٢، دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٨٠م.

(١) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(٢) السيوطى «لقط المرجان فى أحكام الجان» ص ١٦، ١٨، تحقيق مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٣) السيوطى «لقط المرجان» ص ١٢٠.

(٤) السيوطى «لقط المرجان» ص ٩١، ٩٨ ـ ١١٦.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم.

(٥) ابن طولون «مفاكهة الخلان» ح١ ص ١٠٥، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٧١.

(٦) كمال الدين الحموى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء المالكية بدمشق، توفى عام ٨٩٥هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٦٢.

(٧) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة هذا التصدى، ولعله كان تصديًا باللسان، حيث يكشف زيف هذا الدجال، ويبين بالأدلة الشرعية ـ كعالم ـ تحريم الإسلام للتنجيم والدجل، والعاقبة السيئة لمن يعتقد ذلك.

دمشق يعتقدون صدقه ، وأنه يُشفى كل مرض بالتمائم[١] .

كما كان العلماء يكافحون هؤلاء المنجمين من خلال ولايتهم للحسبة ، حيث كان من مهام المحتسب تعزير[٢] هؤلاء الدجالين وإغلاق الأماكن التى يمارسون فيها أعمالهم غير المشروعة[٣] .

* العلماء وبدع القبور :

حرم الإسلام اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، ففى صحيح البخارى فيما رواه ابن عباس ، والسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، قوله ﷺ : « لَعْنَةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٤] ، وفى صحيح مسلم ، من حديث جندب بن عبد الله البجلى ، أنه سمع النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم ، كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهكم عن ذلك »[٥] .

كما حرم الإسلام البناء على القبور ، أو تجديد ما دثر أو ترميم ما وَهى ، فالبناء على القبور محرم ، ففى صحيح مسلم ، من حديث علىّ بن أبى طالب ، قوله : « بعثنى رسول الله ﷺ على ألا أدع صورة إلا طمستها ولا قبر مشرفًا إلا سويته »[٦] .

وفى هذه الأحاديث الصحيحة دلالة ظاهرة على التحذير من البناء على القبور واتخاذها

---

(١) سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٧١.

(٢) التعزير : انظر : ص ٢٧١.

(٣) طوغان شيخ المحمدى « المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية » ص ١١٢، ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ص ١٨٢، العمرى « التعريف بالمصطلح الشريف » ص ١٢٥، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ ، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١١ ص ٢١٥.

(٤) ابن حجر العسقلانى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ح ٣، ص ٩٨، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٠، مسلم «صحيح مسلم» ح١ ص٣٧٦، القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح٢ ص ٤٥٣.

(٥) ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح٢٧ ص ٣٢٧، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٩.

(٦) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٨.

مساجد(*)، وأن ذلك حرام، وبدعة، وضلالة(١).

ولقد علل العلماء تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، أو البناء على تلك القبور، خوفًا من المبالغة فى تعظيم صاحب القبر، والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى للكثير من الأمم الخالية(٢).

أما عن زيارة القبور، سواء كان قبر نبى أو صالح أو أى مسلم فهو أمر مشروع ومستحب للرجال والنساء(*)(٣)، ولكن بضوابط معينة، حيث حرم الإسلام أن تشد الرحال لزيارة قبر

(*) يقول ابن تيمية بشأن قبر النبى ﷺ، ولما مات النبى ﷺ دفن فى حجرة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ، وكانت هى وحجر نسائه فى شرقى المسجد وقبليه، ولم يكن شىء من ذلك داخلًا فى المسجد، واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة، ثم فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى بنحو سنة من بيعته وسع المسجد، وادخلت فيه الحجرة للضرورة»، ويقول البلاطنسى فى ذلك «لما احتاج الصحابة والتابعون إلى توسعة المسجد، وأدخلوا مدفنه الشريف فيه، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد، فيصلى إليه العوام، ويؤدى إلى المحذور، كما بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، وفى ذلك تقول السيدة عائشة «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ قبره مسجدًا»، وذلك كما رواه ـ البخارى ومسلم ـ»، انظر: ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٧ ص ٣٢٣، البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٢، مسلم «صحيح مسلم» ح ١ ص ٣٧٦.

(١) البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٨٠.

(٢) ابن حجر «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» ح٣ ص ٨٦.

(*) ورد بشأن الإذن للنساء فى زيارة القبور، ما رواه مسلم والترمذى وابن ماجة وغيرهم قول النبى ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»، وما رواه الشيخان عن أنس أن النبى ﷺ مر بامرأة تبكى عند قبر فقال: «اتقى الله واصبرى»، فأنكر عليها الجزع ولم ينكر عليها الزيارة، كما روى مسلم عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كيف أقول لهم يارسول الله؟ ـ تعنى إذا زرت القبور)، قال ﷺ: «قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستدقمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»، أما عن الحديث الذى رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال: «لعن زوّارات القبور»، فهذا الحديث هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة، والذى قد يستتبعه تضييع حق الزوج والتبرج وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك، كذلك لقد جاءت أحاديث نبوية صحيحة تأذن بالزيارة، وثبت فى بعضها أنها جاءت بعد النهى عن الزيارة كما جاء فى صيغة =

نبى أو صالح ـ عدا قبر النبى ﷺ ـ ، فالسفر إلى قبور الأنبياء والصالحين لم يكن موجودًا زمن الصحابة والتابعين[١] ، كذلك حرم الإسلام لمن يزور قبر نبى أو صالح أن يتشفع به ، وأن يسأله حاجته ، أو أن يقوم بالنذر على قبر النبى أو الصالح[٢] ، إنما المشروع والسنّة لمن زار قبر مسلم أن يُسلم عليه ويدعو له[٣] .

ولقد شاع فى مصر وبلاد الشام ـ فى العصر المملوكى ـ بدعة شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، كقبر الخليل إبراهيم[٤] ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقدس ، وقبر الست[٥]

= الحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور » ، فثبت أن الإباحة هى المتأخرة ، والنهى هو المتقدم ، فينسخ المتأخر المتقدم ، انظر : ابن قيم الجوزية «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ص ١٦٥، السخاوى « أبو الحسن نور الدين على ـ عاش حتى عام ٨٨٩هـ ـ » « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات » ص ٥، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فى إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، د. محمد قاسم المنسى « دراسات فى السنّة وعلم الحديث » ص ٨١ ـ ٨٣، دار النصر للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

(٣) ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٣٠، ٣٨١، السخاوى « تحفة الأحباب » ص ٤، ٥، ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠.

(١) ابن تيمية « الفتاوى » ح ٢٧، ص ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠، السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ٣٧ ـ ٣٨، دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٤ ـ ٢١٦، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٣٨، ٤٤٨، ٤٩٠.

(٣) السخاوى « تحفة الأحباب » ص ٤، ٥، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٤٤٨.

(٤) يرى غالب العلماء والجمهور أن قبر سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى يوجد بقرية جبرون ـ والتى تسمى مدينة الخليل ـ هو قبره ، انظر : ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٤٤٤، الفزارى « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » ص ٧٧، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٧٦.

(٥) يذكر العامة أن قبر « الست » بدمشق هو قبر به امرأة من أهل البيت ، قالوا إنها السيدة أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ ، وهذا ليس بصحيح ، انظر : شمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ » « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٤٨، ٤٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٩٧ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٤٩٣٣) ، ابن طولون «شمس الدين محمد ت ٩٥٣هـ» «ضرب الحوطة على جميع الغوطة» ص ٦ ، مخطوطة بدار الكتب برقم (٢٠٨١) تاريخ تيمور .

بدمشق، ومشهد سيدنا الحسين[١] بن على بن طالب بمصر وغيرها[٢]، كما شاع فى ذلك العصر زيارة قبور الأنبياء والصالحين والتشفع بهم، وطلب الحوائج منهم، والنذر على قبورهم، كنذر الشموع العظيمة على قبر الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونذر الأموال وغيرها على قبور الأولياء والصالحين، كمشهد السيدة نفيسة بمصر[٣]، كما كان يتولد من زيارة القبور اختلاط الرجال بالنساء، كما كان يحدث عن قبر إبراهيم بن أدهم[٤] ـ بدمشق، وقبر الست بدمشق[٥].

ولقد حارب علماء مصر والشام تلك البدع المتعلقة بالقبور، فأفتى العالمان المصريان ولى الدين العراقى[٦] «ت ٨٢٦هـ»، وجلال الدين السيوطى[٧] «ت ٩١١هـ» بتحريم التشفع

---

(١) جزم العالم ابن تيمية، وتقى الدين البلاطنسى، وغيرهم أن مشهد سيدنا الحسين بن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما بمصر ـ كذب، انظر: ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٧ ص ٤٤٦، ٤٥١، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٤.

(٢) البلاطنسى «الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث» ص ٣، ٥، ٧، ١٧، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٨٠، ٣٨٤.

(٣) ولى الدين العراقى «فتاوى ولى الدين العراقى» ص ٩، ١٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٤٦٨ فقه تيمور)، ومكروفيلم (١٢٤٧٥)، السيوطى «الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع» ص ٣٧ ـ ٣٨، البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣١، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٣٣٨، ٤٩٠، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٥ ص ١٩٢.

(٤) يذكر تقى الدين البلاطنسى أن ذلك القبر المنسوب إلى إبراهيم بن أدهم غير صحيح، ويذكر ابن تيمية أن غالب المشاهد المشهورة بمصر والشام غير صحيحه، وأن الذى اتفق العلماء عليه قبر النبى ﷺ، وقبر سيدنا الخليل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يرى غالب العلماء والجمهور بصحته، أما قبور الأنبياء مثل قبر سيدنا نوح، ويوسف وإسحاق ـ عليهم السلام ـ، وغيرها من قبور الصالحين كمشهد سيدنا الحسين بن علىّ بمصر وغيره فهى كذب، انظر: تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٣، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

(٥) شمس الدين البلاطنسى «الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث» ص ١٧، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٣.

(٦) ولى الدين العراقى: أحمد بن عبد الرحيم، تفقه على شيوخ عصره، درس وبرع فى علم الحديث، توفى ٨٢٦هـ، انظر: ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ١٦٤.

(٧) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ٢٤.

بأصحاب القبور ـ سواء كانوا أنبياء أو صالحين ـ ، وسؤالهم حوائجهم ، أو النذر على تلك القبور كما كان يحدث بقبر سيدنا الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقدس ، وقبر السيدة نفيسة بمصر ، وقال السيوطى : « أن ذلك بدعة وشرك صريح »[١] .

كذلك حرم العالم الدمشقى تقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » النذر أو الوقف على قبور الأنبياء أو الصالحين ، وقال : « إن ذلك النذر أو الوقف باطل ، لأن العامة عندما تفعل ذلك ، فإنها تعتقد أن هذه الأماكن لها خصوصيات لأنفسها ، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء أو الأوزار »[٢] .

كما حارب شمس الدين البلاطنسى[٣] « ت ٨٦٣هـ » ، ما كان يقوم به أهل الشام من شد الرحال إلى قبر الست بدمشق ، الذى كان يزعم العامة أن به السيدة أم كلثوم بنت سيدنا علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ ، فبيّن كذب هذا الزعم ، واستنكر تلك الزيارة التى كانت تتم فى موسم الحج ـ شهرى ذى القعدة وذى الحجة ـ ، حيث كان يتوافد أهل الشام إلى القبر متشبهين بالحجاج فى زيارتهم لقبر النبى ﷺ ، وكأن الفضل سواء ، فضلاً عن سفر النساء من أرجاء الشام إلى ذلك القبر دون محرم ، واختلاط النساء بالرجال[٤] .

كذلك استنكر تقى الدين البلاطنسى[٥] « ت ٩٣٦هـ » ، الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء الذى كان يتم عند قبر إبراهيم بن أدهم ـ المزعوم ـ بدمشق فى منتصف شعبان[٦] .

---

(١) ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠، السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٤ ـ ٢١٧، ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) شمس الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦١.

(٤) شمس الدين البلاطنسى « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٣، ٥، ٦، ٧، ١٧، ١٨، ٤٨، ٤٩.

(٥) تقى الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦٩.

(٦) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٣٣.

* بدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات :

إن خروج النساء إلى المساجد أمرٌ أقرّه الإسلام، ففى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكُمْ إليها(*) »[1] ، وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »[2] .

وفى ذلك الأمر ورد ـ أيضًا ـ قول السيدة عائشة، الذى روته عنها عَمْرَة بنت عبد الرحمن، حيث قالت : سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول : « لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل »[3] .

وعلى أساس هذا القول الذى روّى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ، رأى علماء العصر المملوكى، أنه إذا كان النبى ﷺ أذن للنساء إذنًا عامًا فى الخروج إلى المساجد، كما ورد فى الأحاديث النبوية الصحيحة ـ سالفة الذكر ـ، إلا أن هذا الاستحباب انقلب إلى التحريم فى زماننا، حيث أصبحن النساء ـ فى الغالب ـ يخرجن إلى المساجد، وهن متبرجات بالزينة ويضعن الطيب، بل ويختلطن(*) بالرجال فى المساجد أثناء « المواعيد » ـ

(*) جاء فى صحيح مسلم، أن بلال بن عبد الله بن عمر، لما سمع حديث النبى ﷺ، قال : والله لنمنعُهُنّ، فأقبل عليه عبد الله بن عمر، وسبّه سبًّا شديدًا، وقال أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعُهُنّ، انظر : النووى « يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ » « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٢، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط ٣ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) .

(١) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٢.

(٢) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٣.

(٣) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٦.

(*) روى أبو داود، من حديث أبى أسيد الأنصارى، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق، فقال النبى ﷺ للنساء : « استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق »، قال فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به !، انظر : شمس الدين البلاطنسى « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٢٤، أبو داود «سنن أبى داود» ح٤ ص ٢٢٣٩.

المجالس الدينية ـ التى كانت تعقد بتلك المساجد.

ومن أشهر علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ الذين أفتوا بتحريم خروج النساء إلى المساجد بسبب فساد الزمن والمحارم التى تحدث بسبب ذلك، من مصر، العالم علاء الدين البخارى[١] «ت ٨٤١هـ»، والعالم شهاب الدين الأقفهسى[٢] «ت ٨٤٧هـ»، ومن دمشق، العالم تقى الدين الحصنى[٣] «ت ٨٢٩هـ»، والعالم ابن علوان[٤] «ت ٩١٧هـ»، والعالم شمس الدين البلاطنسى[٥] «ت ٨٦٣هـ»، والعالم تقى الدين البلاطنسى[٦] «ت ٩٣٦هـ»[٧].

ومن تلك البدع التى حاربها علماء العصر المملوكى صلاة الرغائب[٨]، فلقد أفتى العالم

---

(١) علاء الدين البخارى: على بن محمد، من كبار علماء الهند، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى، توفى عام ٨٤١هـ، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٣.

(٢) شهاب الدين الأقفهسى: أحمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، توفى عام ٨٤٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ١٨٠.

(٣) تقى الدين الحصنى: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الفقه، توفى عام ٨٢٩هـ، انظر: ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٠٨.

(٤) ابن علوان: على بن عطية، تفقه على شيوخ عصره، من كبار علماء دمشق، له مصنفات عدة، توفى ٩٣٦هـ، انظر: ابن الحنبلى «در الحبب» ح ١ ص ٦٧٤.

(٥) شمس الدين البلاطنسى: انظر: ص ٢٦١.

(٦) تقى الدين البلاطنسى: انظر: ص ٢٦٩.

(٧) شهاب الدين الأقفهسى «تسهيل المقاصد لزوار المساجد» ص ٢٤٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٤٠ فقه شافعى)، شمس الدين البلاطنسى «الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث» ص ١٩، ٢٠، ٢٤، ٣٢، ابن علوان «أسنى المقاصد فى بدع المساجد» ص ٣٢، ٣٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٩٠ مجاميع تيمور) ومكروفيلم (١٧٨٢٨)، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٨) **صلاة الرغائب**: الأصل فى تلك الصلاة حديث موضوع يقول: «لا تغفلوا من أول ليلة فى رجب، فإنها ليلة تسميها الملائكة الرغائب»، ثم قال: «وما من أحد يصوم يوم الخميس ـ أول خميس من رجب، ثم يُصلى ما بين العشاء والعتمة ـ يعنى ليلة الجمعة اثنتى عشر ركعة»، وهذا حديث موضوع، ورجاله مجهولون، واشتهرت تلك الصلاة بين العامة فى العصر المملوكى، ولقد كان حدوث تلك الصلاة =

العز بن عبد السلام[1] «ت ٦٦٠هـ»، وابن تيمية[2] «ت ٧٢٨هـ» بأنها بدعة[3].

أما علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ الذين أفتوا بأن تلك الصلاة بدعة، العالم المصرى زكريا الأنصارى[4] «ت ٩٢٦هـ»[5]، ومن دمشق، العالم تقى الدين البلاطنسى[6] «ت ٩٣٦هـ»[7]، والعالم قطب الدين الخيضرى[8] «ت ٨٩٤هـ»[9]، والعالم محمد بن إبراهيم[10] «ت ٨٩١هـ»[11].

= بعد المائة الرابعة من الهجرة، وكانت تُصلى فى أول جمعة من شهر رجب اثنتا عشرة ركعة، وهناك من كان يصليها ليلة النصف من شعبان، انظر: محمد بن إبراهيم «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٥٦، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٥، ابن الحاج «المدخل» ح ٤ ص ٢٤٨، ٢٥٤.

(١) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء مصر، وخطابة الجامع بدمشق، وكان سلطان العلماء فى عصره، توفى ٦٦٠هـ، السبكى «طبقات الشافعية» ح ٨ ص ٢٠٩.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، شيخ الإسلام بدمشق فى عصره، درس وأفتى، اشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، توفى ٧٢٨هـ، انظر: ابن العماد «شذرات الذهب» ح ٦ ص ٨٠.

(٣) تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٥، السبكى «طبقات الشافعية» ح٨ ص ٢٥٢، محمد الخضر حسين «السنة والبدعة» ص ٢٤، مقال بدورية دراسات عربية وإسلامية، عدد (٢٠)، عام ١٩٩٩م.

(٤) زكريا الأنصارى: انظر: ص ٢٦٩.

(٥) تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٥.

(٦) تقى الدين البلاطنسى: انظر ص ٢٦٩.

(٧) تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٢٥.

(٨) قطب الدين الخيضرى: محمد بن محمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بدمشق، توفى عام ٨٩٤هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٧٨.

(٩) ألف قطب الدين الخيضرى فى صلاة الرغائب رسالة من ورقتين، عام ٨٨٩هـ، وسماها «تحفة الحبائب بالنهى عن صلاة الرغائب»، انظر حاجى خليفة «كشف الظنون» ح ١ ص ٣٦٥.

(١٠) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم، يعرف بابن قاضى عجلون، تفقه على شيوخ عصره، درس، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق، وناب فى قضاء دمشق، توفى عام ٨٩١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٥٤.

(١١) محمد بن إبراهيم «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٥٠ ـ ٣٦١.

ومن البدع التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى فى العصر المملوكى البدع المتعلقة بالنكاح ، كالإسراف فى حفلات النكاح ، واختلاط النساء بالرجال فى تلك الحفلات ، وما يحدث من رقص وغناء فى تلك الحفلات ، وإقبال الشباب على المرأة ذات المال والزهد فى المرأة ذات الدين[١] .

ولقد ندد العالم الدمشقى ابن علوان « ت ٩٣٦هـ » بهذه الأمور المنكرة حيث يذكر فى كتابه « نسمات الأسحار فى كرامات الأولياء الأخيار »[*] ، أن الرجال أصبحن يتهافتن على المرأة الحسناء ، ذات المال ، وزهدن فيمن ذات دين مخالفين بذلك سنّة الرسول ﷺ « اظفر بذات الدين تربت يداك » ، كما أسرفن فى حفلات النكاح ، واختلطن الرجال مع النساء ، وأحضرت فى تلك الحفلات أرباب الغناء[٢] .

ومن تلك البدع المنكرة التى ذكرها ابن علوان فى كتابه « أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ، أن عقد النكاح كان يتم فى المسجد ، وأثناء ذلك يختلطن النساء المتبرجات بالرجال ، وتقدم أطعمة العرس بالمسجد[٣] .

ومن البدع التى كافحها علماء العصر المملوكى مشاركة المسلمين أهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم ، كعيد النيروز[٤] ، .....

---

(١) ابن بيدكين « إدريس بن بيدكين ـ عاش فى القرن السابع الهجرى وبداية القرن الثامن الهجرى ـ » « اللمع فى الحوادث والبدع » ص ٧٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٤٨٧٣٠) ، د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٣١٤ ـ ٣١٩، د. فايزة الوكيل « الشّوار » « جهاز العروس » فى مصر فى عصر سلاطين المماليك » ص ٤٢٩، دار نهضة الشرق ، ٢٠٠١م .

(*) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (١٤١٥ عام) ، ولقد نشرت أجزاء منه الدكتورة ليلى الصباغ بملاحق رسالتها « الفتح العثمانى لسوريا » .

(٢) د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٣١٤ ـ ٣١٩ « نقلًا عن « نسمات الأسحار » لابن علوان » .

(٣) ابن علوان « أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ص ٢، ٢٥.

(٤) **النيروز** : هو من أعياد القبط النصارى بمصر ، وهو أول السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من تُوت ، وكان من مواسم لهو المصريين قديمًا وحديثًا ـ كما يذكر المقريزى ـ ، وهناك رأى بأن الفيروز ، لفظ فارسى =

وعيد النهر[1] «مارجرجس»، فلقد نهى العلماء من خلال مجالسهم الدينية التى كانوا يعقدونها بالمساجد أمثال محمد بن إبراهيم الدمشقى[2]، الذى استنكر على المسلمين مشاركتهم لأهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم، كعيد النيروز، حيث كان المسلمون يشاركونهم فى أكل أصناف معينة من الطعام كالهريسة، والبلح، والبطيخ، والخروج إلى المتنزهات، وبين لهم أن ذلك الأمر بدعة محرمة[3]، كما أفتى السيوطى[4] «ت ٩١١هـ» بأن ذلك الأمر بدعة[5].

وهكذا حارب علماء مصر والشام البدع التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى،

= أصله بالفارسية نيغ روز، وتفسيره يوم جديد، وهو أحد أعياد الفرس القديمة، اعتاد المجوس على تقديم الهدايا والقربات لملوكهم فيه، وقد درج الدهاقين على تقديم الهدايا فيه للعمال والخلفاء فى العصر الأموى والعباسى، ولقد شارك المسلمين فى الاحتفال به، انظر: المقريزى «الخطط» ح ١ ص ٧٢٤، د. عبد الحكيم عبد الحق محمد «دور العلماء فى الحياة السياسية والاقتصادية فى العصر العباسى الأول» ص ٣٦٧، دكتوراة، آداب المنصورة، ٢٠٠٤م.

(١) **عيد النهر «مارجرجس»**: هو عيد يحتفل به نصارى بيروت فى ثالث وعشرين نيسان «إبريل» من كل عام حيث يخرجون فى ذلك اليوم إلى نهر بيروت، ويشاركهم المسلمون فى هذا الاحتفال، ويرتبط هذا العيد بقصة رواها صالح بن يحيى ـ صاحب كتاب «تاريخ بيروت» ـ، أن النصارى زعموا أنه فى القدم خرج فى بيروت تنين عظيم، فقرر أهل بيروت له فى كل عام بنتا يخرجونها اكتفاء لشره، فوقعت القرعة فى سنة من السنين على بنت صاحب بيروت، فأخرج بنته، فتوسلت بالدعاء، فتصور لها مارجرجس القديس، فقتل التنين، فأمر صاحب بيروت ببناء كنيسة بالقرب من النهر، والنصارى تصور هذه الكائنة فى سائر كنائس بلادهم، انظر: وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٦٩.

(٢) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم، يعرف بابن قاضى عجلون، تفقه على شيوخ عصره، درس، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق، وناب فى قضاء دمشق، وصفه السخاوى بالعلامة، توفى عام ٨٩١هـ، انظر السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٥٤، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٣ ص ٩٨٦.

(٣) محمد بن إبراهيم «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٦٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٥٦٨٠٥)، ابن بيدكين «اللمع» ص ٢٩٣، ابن الحاج «المدخل» ح ٢ ص ٤٦، ٤٨، ٤٩.

(٤) السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(٥) السيوطى «الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع» ص ٥٠ ـ ٥٦.

فتصدوا للاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان ، حيث جاهدوا بلسانهم وأقلامهم هؤلاء الدجالين الذين ادّعوا قدرتهم على تسخير الجان ، واستخدامه فى شتى الأغراض ، وبينوا أن الجن ليس له سلطان على المسلم ، وأن السبيل الوحيد للحماية من أذى الجن ووساوسه هو قراءة القرآن ، والصلاة والدعاء وليس بما يقوله الكهان ، وما يقدموه من تمائم .

كذلك قام العلماء من خلال ولايتهم للحسبة بتعزير هؤلاء الدجالين وإغلاق الأماكن التى كانوا يمارسون فيها أعمالهم غير المشروعة .

كذلك تصدى العلماء للبدع المرتبطة بالقبور ، والتى كان منها شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، والتشفع بهم ، وطلب الحوائج منهم ، والنذر على قبورهم ، فأفتوا بتحريم تلك الأمور ، مظهرين رأى الشرع فى تلك الأمور ، كما نهوا عن ذلك فى مؤلفاتهم التى صنفوها وتحدثوا فيها عن البدع بشكل عام ، ومنها تلك البدعة المذمومة .

كما تصدى علماء مصر والشام لبدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات ، واختلاطهن بالرجال فى المساجد أثناء المواعيد « المجالس الدينية » ، التى كانت تعقد بتلك المساجد ، حيث أفتى العلماء بتحريم خروج النساء إلى المساجد ؛ بسبب تلك المفاسد سدًا للذرائع .

كذلك تصدى العلماء لبدعة صلاة الرغائب التى كانت قائمة بمصر والشام فى القرن التاسع ، وأفتوا بتحريمها ، وبينوا رأى الشرع فيها فى مصنفاتهم العلمية .

كما تصدى العلماء للبدع المتعلقة بالنكاح ، كالإسراف فى حفلات النكاح ، واختلاط النساء بالرجال فى تلك الحفلات ، وما يحدث من رقص وغناء فى تلك الحفلات وغير ذلك ، حيث جاهدوا بأقلامهم تلك الأمور المستقبحة وبينوا رأى الشرع الحنيف فى ذلك الأمر .

كذلك تصدى العلماء لمشاركة المسلمين أهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم كعيد النيروز وغيره ، فنهوا فى مجالسهم الدينية عن ذلك الأمر ، كما أصدروا الفتاوى التى تحرم ذلك الأمر وتوضح أنه بدعة مذمومة .

٣ ـ العلماء والمجالس الدينية ووعظ السلطة المملوكية

لقد كان الوعظ(*) والنصح فى القرآن مرتبطًا برسالات الأنبياء، ولأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإنه من الواجب عليهم إكمال مسيرة الأنبياء فى هذا الشأن، ولقد أدى علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ هذا الواجب خير أداء، حيث تذخر المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات بهؤلاء العلماء الذين كانوا يعقدون المجالس الدينية ـ المواعيد بمصطلح العصر المملوكى ـ فى المساجد لنصح ووعظ المصريين والشاميين وتعليمهم أمور دينهم، ولكن تلك المصادر التاريخية ضنت بذكر ماهية الموضوعات والقضايا التى كانا يتناولها العلماء فى تلك المجالس، غير أن لدينا بعض الإشارات التى يمكن أن نستنبط منها ما أغفلت المصادر التاريخية ذكره، فلقد جمع العالم محمد بن إبراهيم الدمشقى(١) «ت ٨٩١هـ» دروسه الوعظية التى كان يُلقيها بمساجد دمشق فى كتاب سمّاه «النور المبين فى الوعظ المتين»(٢).

ويظهر من خلال ذلك الكتاب، ماهية الموضوعات والقضايا التى كانت تطرح فى المجالس الدينية فى ذلك العصر، والتى كان منها ـ على سبيل المثال ـ محاربة البدع التى كانت سائدة لدى العامة، والتى منها بدعة صلاة الرغائب(٣)، وبدعة مشاركة المسلمين

(*) **الوعظ**: لغة: هو النصح والتذكير بالعواقب، واصطلاحًا: هو تذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، انظر: د. عبد الله عفيفى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ص ٥٦، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.

(١) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم، يعرف بابن قاضى عجلون، تفقه على شيوخ عصره، درس، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق، وناب فى قضاء دمشق، وصفه السخاوى بالعلامة، توفى عام ٨٩١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٥٤، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٣ ص ٩٨٦.

(٢) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٦٨٠٥).

(٣) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لتلك البدعة «صلاة الرغائب»، انظر: ص ٢٨٧.

للنصارى فى الاحتفال بأعيادهم كعيد النيروز، وعيد النهر[١]، ومن تلك الموضوعات ـ أيضًا ـ محاربة طوائف الصوفية المبتدعة «الدراويش والمجاذيب»، وانحرافاتهم والتى كان منها السماع والرقص وضرب الدف بالزوايا والمساجد[٢]، كذلك بعض الموضوعات المتعلقة بالأسرة المسلمة وتربية الأبناء على المنهج الإسلامى، والذى منه الاهتمام بتربية الابنة وحسن رعايتها مثل الابن دون تمييز[٣]، فضلًا على بعض الموضوعات الوعظية كالتذكير بالموت[٤]، وحكايات بعض الصالحين وعباداتهم وزهدهم[٥].

ويمكن القول أن تلك الموضوعات والقضايا التى تناولها محمد بن إبراهيم الدمشقى فى مجالسه الدينية قريبة الشبه لحدٍ كبير بالموضوعات والقضايا التى تناولها أقرانه فى مجالسهم الدينية.

كذلك لدينا إشارات فى بعض كتب التراجم والطبقات، أن تلك المجالس الدينية التى كان يعقدها العلماء بالمساجد كانت تتناول دروسًا فى تفسير القرآن الكريم، ومن هؤلاء العلماء الذين كانت مجالسهم الدينية دروسًا فى تفسير القرآن الكريم، ـ من مصر ـ، العالم سراج الدين البلقينى[٦] «ت ٨٠٥هـ»[٧]، والعالم سعد الدين الديرى[٨] «ت٨٦٧هـ»[٩]،

---

(١) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لتلك البدعة «مشاركة المسلمين للنصارى فى احتفالاتهم ـ، انظر: ص ٢٨٩.

(٢) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لانحرافات الدراويش والمجاذيب.

(٣) محمد بن إبراهيم الدمشقى «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٧٩.

(٤) محمد بن إبراهيم الدمشقى «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ١٧ ـ ٢٤.

(٥) محمد بن إبراهيم الدمشقى «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٢٥ ـ ٣٣.

(٦) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، توفى ٨٠٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٨٥.

(٧) جلال الدين البلقينى «ترجمة سراج الدين البلقينى» ص ٢٠ ـ ٢٩، ابن شهبة «الإعلام بتاريخ الإسلام» ص ٣٢٢.

(٨) سعد الدين الديرى: انظر: ص ٢٦٠.

(٩) ابن طولون «الغرف العلية فى تراجم الحنفية» ص ٣٣١.

وجلال الدين البلقينى[١] «ت ٨٢٤هـ»[٢]، وأبو النجا ابن خلف[٣] «ولد ٨٤٩هـ»[٤].

ـ ومن دمشق، العالم برهان الدين البقاعى[٥] «ت ٨٨٥هـ»[٦].

ـ ومن القدس ـ العالم شهاب الدين[٧] أبو العباس «ت ٨٧٠هـ»[٨].

والآن يعرض الباحث لهؤلاء العلماء الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم كانوا يعقدون المجالس الدينية ـ المواعيد بمصطلح العصر المملوكى ـ فى المساجد لنصح ووعظ المصريين والشاميين وتعليمهم أمور دينهم.

فمن مصر ـ على سبيل المثال ـ جلال الدين البلقينى «ت ٨٢٤هـ»[٩]، وجمال الدين الأذرعى[١٠] «ت ٨٤٦هـ»[١١]، وشمس الدين محمد[١٢] «ت ٨٤٧هـ»[١٣]، وصالح

---

(١) جلال الدين البلقينى: عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٢٤هـ، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦.

(٢) ابن حجر «إنباء الغمر» ح٣ ص ٢٦٠، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

(٣) أبو النجا ابن خلف: هو من فقهاء مدينة فوة ـ إحدى مدن مصر، قطنها مدة طويلة، ثم ذهب إلى القاهرة، وعقد مجلسًا للتفسير بجامع الأزهر، واستُحسنت مجالسه، وسمعها جمع من الأعيان، ولد عام ٨٤٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ١٤٤.

(٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ١٤٤.

(٥) برهان الدين البقاعى: انظر: ص ٢٦٣.

(٦) البقاعى «إظهار العصر» ص ٥٨.

(٧) شهاب الدين أبو العباس: أحمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، اجتمع عليه أهالى القدس لسماع وعظه وتذكيره، توفى ٨٧٠هـ، انظر: ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٩١.

(٨) ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٩١.

(٩) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٤٤٠.

(١٠) جمال الدين الأذرعى: عبد الله بن الحسن، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى عام ٨٤٦هـ، انظر: ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ٢٦١.

(١١) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ٢٦١.

(١٢) شمس الدين محمد: محمد بن حسن، العالم الفقيه الربانى، كان ديِّنا فقيهًا، عالمًا، توفى ٨٤٧هـ، انظر: ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٥ ص ٢٣٣.

(١٣) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٥ ص ٢٣٣.

البلقينى[١] «ت ٨٦٨هـ»[٢]، وسعد الدين الديرى[٣] «ت ٨٦٧هـ»[٤]، وشهاب الدين أبو العباس[٥] «ت ٨٧٠هـ»[٦]، وبرهان الدين الديرى[٧] «ت ٨٧٦هـ»[٨]، وزكريا الأنصارى[٩] «ت ٩٢٦هـ»[١٠].

ومن علماء دمشق الذين تزاحم الدمشقيون على مجالسهم الدينية إبراهيم بن مفلح[١١] «ت ٨٠٣هـ»[١٢]، وابن الجزرى[١٣] «ت ٨١٣هـ»[١٤]، وأبو بكر بن مفلح[١٥]

---

(١) صالح البلقينى: صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، توفى ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢، السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ١٦١.

(٣) سعد الدين الديرى، انظر: ص ٢٦٠.

(٤) ابن طولون «الغرف العلية فى تراجم الحنفية» ص ٣٣١، الغزى «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية» ص ٢٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٢٥٠.

(٥) شهاب الدين أبو العباس: أحمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره بالقدس، قدم إلى القاهرة، وعقد المجالس الدينية بها، توفى ٨٧٠هـ، انظر: ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٩١.

(٦) ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٩١، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٤٣٧.

(٧) برهان الدين الديرى: إبراهيم بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى قضاء الحنفية بمصر، توفى عام ٨٧٦هـ، انظر: السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٤.

(٨) السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٥.

(٩) زكريا الأنصارى: زكريا بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى قضاء الشافعية بمصر، توفى عام ٩٢٦هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ١٩٦.

(١٠) السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ١٤٦.

(١١) إبراهيم بن مفلح: إبراهيم بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الحنابلة بدمشق عام ٨٠١هـ، توفى عام ٨٠٣هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٨٨.

(١٢) ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ١ ص ٢٣٧، ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٨٨.

(١٣) ابن الجزرى: على بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه، ودرس، توفى عام ٨١٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٥ ص ١٥٧.

(١٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٥ ص ١٥٧، المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٥٣٩.

(١٥) أبو بكر بن مفلح: هو أبو بكر بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بدمشق، توفى عام ٨٢٠هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٩٠.

«ت ٨٢٠هـ»[١]، وتقى الدين الحصنى[٢] «ت ٨٢٩هـ»[٣]، وتاج الدين أبو حامد «ت ٨٣١هـ»[٤]، وابن زكنون[٥] «ت ٨٣٧هـ»[٦]، ومحيى الدين أبو زكريا[٧] «ت ٨٤٠هـ»[٨]، وأبى شعر[٩] «ت ٨٤٤هـ»[١٠]، وعلاء الدين الدمشقى[١١] «ت ٨٤٤هـ»[١٢]، وعمر بن مفلح[١٣] «ت ٨٧٠هـ»[١٤].

ومن علماء حلب الذين تزاحم الحلبيون على مجالسهم الدينية شهاب الدين

---

(١) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ١٣، ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٩١.

(٢) تقى الدين الحصنى: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الفقه، توفى ٨٢٩هـ، انظر: ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٠٨.

(٣) البقاعى «عنوان الزمان» ح١ ص ١٧٦.

(٤) البقاعى «عنوان الزمان» ح٢ ص ٤٦٧.

(٥) ابن زكنون: على بن حسين، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الحديث، توفى ٨٣٧هـ، انظر: المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٤٨٢.

(٦) ابن المبرد «الجوهر المنضد» ص ٩٥، ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ٢ ص ٢٣٧، ابن عبد الهادى «ذيل ابن عبد الهادى» ص ٦٢.

(٧) محيى الدين أبو زكريا: يحيى بن يحيى، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى قضاء الشافعية بدمشق، درس وأفتى، توفى ٨٤٠هـ، انظر: ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٣٦.

(٨) ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٣٦.

(٩) أبى شعر: عبد الرحمن بن سليمان، تفقه على شيوخ عصره، كان بارعًا فى الفقه والتفسير، توفى عام ٨٤٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٨٢.

(١٠) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٨٢.

(١١) علاء الدين الدمشقى: على بن عثمان، تفقه على شيوخ عصره، درس بدمشق، وأفتى، ناب فى القضاء، توفى ٨٤٤هـ، انظر: المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٥٤١.

(١٢) المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٥٤٢.

(١٣) عمر بن مفلح: عمر بن مفلح، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بدمشق، توفى ٨٧٠هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٩٦.

(١٤) ابن المبرد «الجوهر المنضد» ص ١٠٦، ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٩٦، ابن عبد الهادى «ذيل ابن عبد الهادى» ص ٦٧.

الحاضرى[1] « ت ٩١٣هـ »[2] ، وابن الشماع[3] « ت ٨٦٣هـ »[4] ، وقوام الدين الحلبى[5] « ت ٩٢٤هـ »[6] ، وابن الرسام « ت ٨٤٤هـ »[7] ، وعبد المنعم بن عبد الله « ت ٨٠٢هـ »[8] .

وهكذا قام ـ علماء مصر والشام خلال القرن التاسع ـ كما أظهرت كتب التراجم ـ بعقد المجالس الدينية التى كانت تقام بالمساجد والزوايا ، والتى قاموا فيها بتعليم المصريين والشاميين أمور دينهم « عبادات ـ معاملات » ، كما تصدوا خلالها لتلك البدع التى انتشرت فى المجتمع آنذاك ، كما تصدوا لتلك الطوائف المنحرفة من الصوفية المبتدعة وهاجموا أفكارهم المنحرفة ، فضلًا على قيام بعض العلماء بتخصيص مجالسهم لتفسير القرآن الكريم .

* العلماء ووعظ السلطة المملوكية :

تذكر لنا المصادر التاريخية أن بعض علماء مصر والشام تصدوا لوعظ[*] السلطة المملوكية ، ومن أشهر علماء مصر فى هذا الميدان العالم بدر الدين العينى[9] « ت ٨٥٥هـ » ،

---

(١) شهاب الدين الحاضرى : هو أحمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، أفتى ، وعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٩١٣هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ١ ص ٨٩، ٩٠.

(٢) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ١ ص ٨٩، ٩٠.

(٣) ابن الشماع : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان يعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٣٢.

(٤) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٣٢.

(٥) قوام الدين الحلبى : محمد بن أبى بكر ، كان عالمًا فقيهًا ، درس بجامع حلب ، وعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٩٤٢هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٤٣.

(٦) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٤٣.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٧، ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٨٠.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٨٩.

(*) الوعظ : انظر : ص ٢٩١.

(٩) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

الذى كان له مواعظ حسنة للسلطان المؤيد شيخ[١] «ت ٨٢٤هـ»، والتى منها حثّه على معرفة أمور الرعية قليلها وكثيرها[٢]، وإنصاف المظلومين، والجلوس مع العلماء وأرباب الرأى وتجنب مجلس اللهو والمنكرات[٣]، وعدم احتقار أرباب الحوائج[٤]، وتتبع أحوال نوابه وأخبارهم[٥]، والإكثار من قراءة سير الخلفاء الراشدين[٦]، وحسن اختيار نوابه وعماله[٧].

كذلك كان أمر بدر الدين العينى مع السلطان برسباى[٨] «ت ٨٤١هـ»، حيث كان العينى مستشاره الخاص ـ بمفهومنا المعاصر ـ، فكان يقرأ له التاريخ باللغة العربية، ثم يُفسره له باللغة التركية لتمكنه منها، وكان يوضح له أمور الدين فى كل وقت وحين، ويعلمه مباشرة النظر فى مصالح المسلمين، يبعده عن المظالم، ولذلك قال السلطان برسباى مرارًا «لولا العينى ما حسن إسلامنا»[٩].

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ بدر الدين البغدادى[١٠] «ت ٨٥٧هـ»، الذى ذكرت المصادر التاريخية أنه كان له «رياسة ضخمة وحرمة وافرة وكلمة مقبولة، وأوامر مطاعة»،

---

(١) المؤيد شيخ: سبق تعريفه بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٢) العينى «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى» ص ٢٨٨، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة الهامة لقصور الثقافة، «سلسلة الذخائر» (٩٢)، ٢٠٠٣م.

(٣) العينى «السيف المهند» ص ٢٩٢.

(٤) العينى «السيف المهند» ص ٢٨٧.

(٥) العينى «السيف المهند» ص ٢٩٠.

(٦) العينى «السيف المهند» ص ٢٩١.

(٧) العينى «السيف المهند» ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠.

(٨) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٩) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ١٣٢، ١٣٣، العينى «عقد الجمان «٨٢٤ ـ ٨٥٠هـ»» ص ١٨ ـ ٢٢، ٤٧ ـ ٤٨.

(١٠) بدر الدين البغدادى: محمد بن محمد بن عبد المنعم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بمصر، درس، توفى عام ٨٥٧هـ، انظر: السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٣٤٩، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٦٨١.

وأنه كان كثيرًا ما يتوجه بالنصح والوعظ والتوجيه للسلطان جقمق[1] «ت ٨٥٧هـ»، وكان السلطان جقمق «منقاد معه إلى الغاية» ـ كما تذكر المصادر التاريخية ـ[2].

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ العالم زكريا الأنصارى[3] «ت ٩٢٦هـ» الذى كان كثير النصح والوعظ للسلطان قايتباى[4] «ت ٩٠١هـ»، وتذكر المصادر التاريخية أنه عندما أوعز حاشية السلطان قايتباى للسلطان بأن يكف زكريا الأنصارى عن نصحه ووعظه، زجرهم، وقال لهم من يُبصرنى بعيوبى إذن[5]!

ومن وعظيات زكريا الأنصارى للسلطان قايتباى ـ التى حفظتها لنا المصادر التاريخية ـ قوله للسلطان «قد كنت عدمًا، فصرت وجودًا، وكنت كافرًا فصرت مسلمًا، وكنت رقيقًا فصرت حرًّا، وكنت مأمورًا فصرت آمرًا، وكنت أميرًا فصرت سلطانًا، فلا تقابل هذه النعمة بالتجبر والتكبر، وتنسى مبتداك ومنتهاك، ووضع أنفك فى التراب حين تموت، ثم يأكلك الدود، وتصير ترابًا»، فبكى السلطان، وقال لمن حوله من الأمراء، إذا أبعدت هذا فمن يقول لى هذا الوعظ[6]!.

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ الكافياجى[7] «ت ٨٧٩هـ»، الذى صنف كتاب بعنوان «سيف الملوك والحكام»[8]، ليكون مرشدًا للسلطة المملوكية إلى سبيل الحق، ومرشدًا لهم فى كيفية تدبير أمور الرعية ـ كما ذكر فى مقدمة كتابه ـ[9].

---

(١) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١١.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ١٣١.

(٣) زكريا الأنصارى: انظر: ص ٢٦٩.

(٤) السلطان قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢.

(٥) الشعراوى «ذيل الطبقات» ص ٤٠ ـ ٤١.

(٦) الشعرانى «ذيل الطبقات» ص ٤٠ ـ ٤١.

(٧) الكافياجى: محمد بن سليمان، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، وله مصنفات عديدة، توفى ٨٧٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ٢٦٠.

(٨) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٢٦٣ب) ومكروفيلم (٤٩٣١٣).

(٩) الكافياجى «سيف الملوك والحكام» ص ١.

obeikandl.com

ولقد بيّن فى ذلك الكتاب للسلطة المملوكية ـ من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وسير الخلفاء الراشدين ـ ، عدة أمور أهمها أن المهمة الرئيسية لهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١] ، كما يأمرهم بالعدل مع الرعية[٢] ، وحفظ أموال بيت المال ، فلا يأخذ مال إلا بحق ، ولا ينفق مال إلا لمستحق[٣] ، ويبشره بأن الجنّة هى عاقبة الحاكم العادل ، كما ذكر الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم[*] ، أن النبى ﷺ قال : « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط ، ورجل رحيم القلب بكل ذى قربة ، وفقير عفيف متعفف ذو عيال »[٤] ، ثم يذكر له سير الخلفاء الراشدين أمثال الخليفة عمر بن الخطاب ، والخليفة عمر بن عبد العزيز للاعتبار بهم[٥] .

ومن علماء الشام الذين تصدوا لوعظ السلطة المملوكية ، العالم برهان الدين البقاعى[٦] « ت ٨٨٥هـ » ، الذى دخل على السلطان المؤيد[٧] أحمد بن إينال عندما تولى السلطنة عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ، وأخذ يعظه ويحثه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويحذره من دعوة المظلوم وعاقبة الظالمين ، ويذكره بسيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قائلًا له : « إن عمر بن عبد العزيز كانت مدة ولايته سنتين وخمسة ، وكان المفاسد قبله قد كثرت ، حتى ملأت الأرض ، ومع ذلك لم يمت ومنها شيء ، بل زالت كلها فى هذه المدة اليسيرة ، ومن قال إن الزمان غير قابل لذلك ، فهو غير مصيب ، فلم يزل الله يبعث للناس من يرحمهم به »[٨] .

(*) وهو جزء من حديث طويل رواه عياض المجاشعى عن رسول الله ﷺ ـ جاء فيه « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط مُتصدِّق مُوَفَّق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكلِّ ذى قُربى ومسلم ، وعفيف مُتعفِّف ذو عيال » ، انظر : القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح٨ ص ٣٩٦.

(١) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٢، ٢٨.

(٢) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٣ ـ ٨.

(٣) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٣، ٣٨، ٣٩.

(٤) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٧.

(٥) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٧٠ ـ ٧٥.

(٦) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٢٦٣.

(٧) السلطان المؤيد أحمد : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٢ .

(٨) البقاعى « إظهار العصر » .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ العالم علاء الدين البخارى[1] «ت ٨٤١هـ»، الذى قال للسلطان برسباى[2] «ت ٨٤١هـ» عند زيارته لدمشق عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م «إنه كان قبلك من الملوك من هو أعظم منك دولة، فمنهم من سلك طريق العدل كالخلفاء الراشدين، ومنهم من سلك طريق الظلم كفرعون ونمرود، والجميع تركوا الدنيا، وإنك تموت مثلهم وتمضى، فاختر لنفسك أى الطريقين»[3].

وهكذا قام العلماء بمهمة الوعظ والنصح للسلطة المملوكية، فبينوا لهم الواجبات التى كلف الله بها الحاكم تجاه الرعية، وصنفوا لهم فى ذلك الأمر المؤلفات، كما كثر ترددهم على مجالسهم لوعظهم وحثهم على الرفق بالرعية، وإقامة العدل فيهم، وتذكيرهم بأنهم سيموتون ثم بعد ذلك يبعثون ويُسألون أمام الله عن أمانة الحكم التى حملوها فى دنياهم.

ولقد كان ذلك الوعظ والنصح له تأثيره فى نفوس السلاطين المماليك، كما حدث مع السلطان برسباى، وجقمق، وقايتباى ـ كما سبق القول ـ.

(١) علاء الدين البخارى: على بن محمد، من كبار علماء الهند، رحل إلى دمشق فى العصر المملوكى، ومكث بها حتى وفاته ٨٤١هـ، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٣.

(٢) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، ص ١٠.

(٣) ابن عربشاة: «سيرة جقمق» ص ١٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٩٢ تاريخ)، ومكروفيلم (٣٦٣٤٤).

obeikandl.com

٤ ـ العلماء والمحن والابتلاء

إن ابتلاء الله ـ عزّ وجلّ ـ للمجتمع المسلم للتمحيص والتمييز، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، والابتلاء لا يكون وضعًا سيئًا دائمًا إنما ينصرف إلى الخير كما ينصرف إلى الشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولقد جعل الله الابتلاء ـ بالشر ـ ضابطا ومقومًا للمجتمع المسلم عندما ينحرف ذلك المجتمع عن منهج الله وصراطه المستقيم، فيكون الابتلاء عندئذٍ ضابط ومقوم لذلك المجتمع وراجع به إلى منهج الله الذى انحرف عنه، حيث ينيب المجتمع إلى الله ويتضرع إليه بالدعاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢][(١)].

ولقد ذكرت المصادر التاريخية أن المجتمع المصرى والشامىّ تعرض للونين رئيسيين من المحن والابتلاء ـ طيلة القرن التاسع ـ، وهما الجفاف والطاعون.

فلقد أصاب مصر موجات من الجفاف ـ بسبب عدم وفاء النيل[(٢)] ـ، كما حدث على سبيل المثال ـ عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م[(٣)]، و٨٠٦هـ/١٤٠٣م[(٤)]، و٨٢٣هـ/١٤٢٠م[(٥)]،

---

(١) العز بن عبد السلام «ت ٦٦٠هـ» «الفتن والبلايا والمحن والرَّزايا» ص ٩، ١٠، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، د. نصر محمد «نظريات التنمية السياسية المعاصرة، دراسة نقدية مقارنة فى ضوء المنظور الحضارى الإسلامى» ص ١٥٨، ١٩١، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٨م.

(٢) تبدأ زيادة النيل فى شهر حزيران «يونيو»، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعًا حدث وفاء النيل، و إن نقص إلى أربعة عشر ذراعًا حدث الجفاف، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٤٠، ٤١.

(٣) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٥ ص ١٧٠.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٥ ص ١٣٤.

(٥) ابن تغرى بردى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٢٤٥، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٣.

و ٨٥٤هـ/١٤٥٠م[١] .

أما بلاد الشام، فلقد أصابها موجات من الجفاف شملت كافة نواحيها، بسبب قلة سقوط المطر[٢]، كما حدث على سبيل المثال بدمشق[٣] عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م[٤]، والقدس عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م[٥] .

أمّا الطاعون[٦]، فلقد تعرضت مصر لحوالى عشرة جوائح طاعونية، منها ما حدث عام ٨١٣هـ/١٤١٠م[٧]، و٨١٩هـ/١٤١٦م[٨]، و٨٢٢هـ/١٤١٩م[٩]، و٨٣٣هـ/١٤٢٩م[١٠]، و٨٤١هـ/١٤٣٧م[١١] .

---

(١) ابن تغرى «حوادث الدهور» ص ٢٣٤.

(٢) عن تلك الموجات التى تعرضت لها بلاد الشام، انظر: فادى إلياس «المناخ والأسعار» ص ٧٦، وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٣١.

(٣) هناك ثلاثة مصادر للمياه بدمشق، هى الأمطار الشتوية، ومياه الأنهار، ومياه العيون والينابيع، ومياه الأمطار محدودة، ولا تفى بحاجة السكان، وتعد مياه نهر بردى أهم مورد للمياه فى مدينة دمشق، انظر: د. محمد حسين محاسنة «تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمى» ص ٣٨، دار الأوائل للنشر، دمشق، ط ١ (٢٠٠١م).

(٤) مجهول «حوليات دمشقية» ص ١٢٩.

(٥) مجير الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٨.

(٦) **الطاعون**: فى مفهوم أطباء العصر المملوكى ورم قاتل، يصيب عادة الأعضاء الغددية خلف الأذنين، والإبطين، والفخذين، وتظهر الأعراض المصاحبة له على هيئة ارتفاع فى درجة الحرارة مع ألم فى الصدر، واضطراب فى النبض، والطاعون ـ كما تذكره الموسوعة البريطانية ـ كان يطلق قديمًا على أى مرض واسع الانتشار، مسببًا للموت الجماعى، ولكنه الآن محصور فى حمّى معديه من نوع خاص تسببه البكتريا العصوية، انظر: ابن حجر «بذل الماعون فى فضل الطاعون» ص ٢٥، تحقيق أحمد عصام، دار العاصمة، السعودية، ١٤١١هـ، سعاد حسن «الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية» ص ٢٦، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٩٩م، د. جيرار جهامى «موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب» ح١ ص ٩٠٧.

(٧) ابن حجر «بذل الماعون» ص ٣٦٩.

(٨) ابن حجر «بذل الماعون» ص ٣٦٩.

(٩) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٥٦.

(١٠) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٣١، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٢٠١.

(١١) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٣ ص ٤٠٥.

أمّا بلاد الشام، فلقد تعرضت بلاد الشام لعدة جوائح طاعونية[١]، منها ـ على سبيل المثال ـ طاعون دمشق عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م[٢]، وطاعون حلب عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م[٣].

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية دورًا بارزًا لعلماء مصر والشام إزاء تلك المحن وذلك الابتلاء الذى أصاب المجتمع المصرى والشامىّ، حيث كان العلماء يدعون المجتمع «حكام ـ ومحكومين» بالكف عن المعاصى والذنوب، ثم يتضرع الجميع بعد ذلك إلى الله بالدعاء لرفع الابتلاء.

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، عندما تعرضت مصر لجائحة طاعونية شديدة، فاستفتى السلطان برسباى[٤] العلماء عن كيفية كشف هذا البلاء، فأفتاه العلماء بكف السلطة عن المظالم، والتى منها المكوس ونحو ذلك، وأن يقلع المصريون عن المعاصى، ويكثروا من الطاعات، ثم خرج بعد ذلك العلماء بقيادة علم الدين البلقينى[٥] يقود حشد كبير من المصريين إلى الصحراء، وأكثروا من الدعاء والتضرع إلى الله، فارتفع الطاعون[٦].

وكذلك تكرر المشهد السابق ـ مع شىء من الاختلاف ـ عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م عندما أصاب الطاعون مصر، عندما سئل السلطان برسباى العلماء عن الذنب الذى إذا فشا فى المجتمع المسلم عاقبهم الله بالطاعون، فأجابه بعض العلماء أن الزنا إذا فشا فى الناس سلط

---

(١) عن تلك الجوائح الطاعونية التى تعرضت لها بلاد الشام، انظر: زكريا الأنصارى «تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين» ص ٣٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤١ حديث تيمور، مكروفيلم (٢٢٢٧٣)، فادى إلياس «المناخ والأسعار» ص ٣٨٥، وفاء محمد «ساحل الشام» ص ٢٣٤.

(٢) ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٣٣٥.

(٣) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١١، ٢١٢.

(٤) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٥) علم الدين البلقينى: صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، توفى عام ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢.

(٦) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ١٧٢، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٥٠٧، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٢٠٠، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٨٢٩، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٣١.

الله عليهم الطاعون[*] ، ثم بيّن له العلماء أن النساء يخرجن من بيوتهن متبرجات ويمشين فى الطرقات ليلًا ونهارًا ، ورأى بعض العلماء أن المصلحة تقتضى منع النساء من المشى فى الأسواق[١] أو الخروج من بيوتهن ، ولكن هذا الرأى خالفه فريق آخر من العلماء ، حيث رأى أن المنع يقتصر على النساء المتبرجات ، ولكن السلطان اختار المنع المطلق ، ثم خفق ذلك المنع بعد ذلك ، حيث صرح للإماء بقضاء حوائج مواليهن من الأسواق ، وأن تخرج العجائز لقضاء الحوائج اللاتى لابد لهن منها[٢] .

أمّا بلاد الشام ، فعندما حدث الطاعون بدمشق عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م قام العلماء على رأسهم ـ شهاب الدين بن الفرفور[٣] ـ بالتضرع إلى الله ، والابتهال إليه ، ليرفع عنهم ذلك البلاء[٤] ، كما قاموا بقراءة « صحيح البخارى »[٥] من أوله إلى آخره مرتين[٦] .

(*) لعل العلماء قصدوا بذلك ما رواه ابن ماجه فى « سننه » وصححه الألبانى عن الرسول «يا معشر المهاجرين : خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين وشِدّة المئُونة ، وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القَطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مِمّا أَنْزَل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » ، انظر : ابن ماجه «سنن ابن ماجه» ص ١٣٣٣، الألبانى «الجامع الصغير» ح٢ ص ١٣٢١.

(١) لعل هذا الرأى الخاص بمنع خروج النساء إلى الأسواق أوقات الابتلاء ، يرجع إلى ما كان يصدر من بعض النساء من الممازحة مع الباعة ، وهذا ما أثار استياء ابن الحاج ـ أحد فقهاء العصر المملوكى ـ ، وأشار إليه فى كتابه « المدخل » ، انظر : ابن الحاج « المدخل » ح ٤ ص ٣٢، خالد عزب « دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصر المملوكى والعثمانى » ص ٦٣، ماجستير ، آثار القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٠٥، ٤٠٦، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٢٧٣.

(٣) شهاب الدين بن الفرفور : أحمد بن محمود ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق مدة طويلة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ٣ ص ٩٧.

(٤) لم تذكر المصادر التاريخية هل رفع الطاعون أم لا ؟!

(٥) كانت قراءة صحيح البخارى بالمساجد من الأمور الشائعة فى العصر المملوكى ، بل كانت قراءة صحيح البخارى من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر رمضان فى ذلك العصر ، انظر : د. سعيد عاشور « المجتمع المصرى » ص ١٨٦.

(٦) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٣٥.

وكذا كان الأمر بحلب عندما حدث بها الطاعون عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، حيث قام العلماء والأهالى بالتضرع إلى الله والابتهال إليه ليرفع عنهم ذلك الابتلاء[١].

ولم يختلف الأمر بالنسبة لموجات الجفاف التى كانت تتعرض لها مصر بسبب عدم وفاء النيل، حيث كان يخرج العلماء ومعهم المصريون للاستسقاء[٢]، ويظلون يدعون الله ويتضرعون له حتى يحدث وفاء النيل.

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، أنه عندما توقف النيل عن الزيادة، خرج العلماء وعلى رأسهم العالم جلال الدين البلقينى[٣] إلى الصحراء، وأقبل المصريون أفواجًا من كل جهة، ثم أقبل السلطان شيخ[٤]، ثم صلى بهم العالم جلال الدين ركعتين كهيئة صلاة العيد، ثم خطب فى الناس خطبتين حث فيهما على التوبة والاستغفار وأعمال البرّ، وحذّرهم ونهاهم، ثم استقبل القبلة ودعا وأطال الدعاء والسلطان يبكى وينتحب، فجاءت زيادة النيل عقب ذلك مباشرة[٥].

ولقد تكرر المشهد السابق عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م عندما تعرضت مصر للجفاف بسبب

---

(١) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١١، ٢١٢.

(٢) **الاستسقاء**: لغة: طلب السقى، وإعطاء ما يشربه، والاسم السُقيا، وشرعًا طلب إنزال المطر من الله على وجه مخصوص عند شدة الحاجة بأن يحبس المطر عن المسلمين، ولم يكن لهم أودية وأنهار وآبار يشربون منها، ويسقون مواشيهم وزروعهم، وطريقة صلاة الاستسقاء تتحقق بواحدة من ثلاث طرق، الأولى الدعاء المجرد من الارتباط بصلاة أو خطبة جمعة فى أى مكان صالح للدعاء فى مسجد أو خارج مسجد، والثانية، أن يضمن الإمام خطبة الجمعة دعاء الاستسقاء مكتفيًا به بلا صلاة، والثالثة، وهى المشهور والأفضل، وهى أن يصلى الإمام بالمسلمين ركعتين كركعتى العيدين تماما، ويخطب خطبتين مرتكزتين على الدعاء، والإلحاح فى طلب الماء مستهلًا خطبته الأولى بالاستغفار تسعًا، وخطبته الثانية بالاستغفار سبعًا، انظر: د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية» ح ٤ ص ٢٤٦.

(٣) جلال الدين البلقينى: عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٢٤هـ، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦.

(٤) السلطان شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٥) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٢٤٥، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٣، ٣٨٤.

عدم وفاء النيل[1].

وكذلك كان الأمر فى بلاد الشام، فعندما حدث الجفاف بدمشق عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، بسبب عدم سقوط المطر، قام العلماء والأهالى بصلاة الاستسقاء، والتضرع إلى الله، والابتهال[*] إليه، فنزل المطر عقب ذلك[2].

وكذلك عندما حدث الجفاف بالقدس عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، بسبب عدم سقوط المطر، قام العلماء والأهالى بصلاة الاستسقاء، والتضرع إلى الله، فنزل المطر عقب ذلك[3].

وهكذا استطاع العلماء بفهمهم لأسباب وقوع المحن والابتلاء بالمجتمع المصرى والشامى ـ خلال القرن التاسع ـ والذى تمثل بشكل رئيسى فى الجفاف والطاعون ـ إزالة هذا الابتلاء وتلك المحن، حيث فطن العلماء أن تلك المحن ضابط ومقوم للمجتمع المسلم عندما ينحرف ذلك المجتمع عن منهج الله وصراطه المستقيم، فيكون الابتلاء عندئذ ضابط ومقوم لذلك المجتمع وراجع به إلى منهج الله الذى انحرف عنه، حيث ينيب المجتمع «حكام ومحكومين» إلى الله، ويتضرع إليه بالدعاء، عندئذ ينكشف البلاء، وهو ما حدث فعلًا، وصدقته الوقائع التاريخية ـ كما سبق القول ـ.

---

(١) ابن تغرى بردى «حوادث الدهور» ص ٢٣٤.

(*) **الابتهال**: هو أن تبسط يديك وذراعيك إلى السماء، والابتهال حين ترى أسباب البكاء، انظر: د. رفيق العجم «موسوعة مصطلحات أصول الفقه» ص ٥.

(٢) مجهول «حوليات دمشقية» ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣) مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٨.

٥ ـ العلماء وأهل الذمة(*)

حرصت السلطة المملوكية ـ كما يظهر من خلال الوثائق الكثيرة التى خلّفها ذلك العصر ـ على إثبات التزامهم بالعدالة تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى عملًا بتعاليم الدين الإسلامى ، فقد صدرت المراسيم من سلاطين المماليك ـ طيلة العصر المملوكى ـ أمثال السلطان الظاهر بيبرس(١) ، والسلطان فرج بن برقوق(٢) ، والسلطان المؤيد شيخ(٣) ـ تأمر لأهل الذمة « ... أن تكون جهتهم مرعية على الدوام ، وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام لأنهم أهل ذمة وكتاب »(٤) .

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية طبيعة العلاقة بين العلماء وأهل الذمة فى أمور ثلاثة :

(*) **الذمة** : لا يعنى ذلك المصطلح انتقاص من قدر أهل الكتاب ، حيث أن معناه لغة واصطلاحًا فى شرعنا الإسلامى تدور حول معانى العهد والضمان والكفالة والأمان والحق والحرمة ، ولقد سموا بذلك لأن لهم عهد الله ورسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين ، فهم فى أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذمة ، انظر : د. حسن على حسن « أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى » ص ١٥، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، « سلسلة دراسات إسلامية « العدد ١٢٠» ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، أحمد محمود « أحكام الذمة بين الفقه الإسلامى والقانون الوضعى » ص ٢٧، دكتوراة ، دار العلوم ، ٢٠٠١م .

(١) الظاهر بيبرس : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٤ .

(٢) فرج بن برقوق : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ١٥ .

(٣) المؤيد شيخ : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٤) د. حياة ناصر « العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى » ص ٤، مؤسسة الصباح ، الكويت ، ١٩٨٠، د. قاسم عبده « اليهود فى مصر » ص ١٤٥، دار الشروق ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، د. حسن على حسن « أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى » ص ١٣٦، د. قاسم عبده « أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك : دراسة وثائقية » ص ٦٨، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ، زينب محمد « التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الإنشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجرى » ص ١٠٨، ١١٣، ١٣٧، ١٧١، ماجستير ، آداب القاهرة « قسم الوثائق » ، ١٩٧٠م .

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس .

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة .

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة .

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس :

أجمع علماء الإسلام أن الكنائس التى كانت قائمة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص من مساحتها ، أمّا الكنائس التى كانت قائمة فى المدائن التى فتحها المسلمون عنوة ـ كعامة بلاد الشام إلا مواضع قليلة ففتحت صلحًا ، وكأرض مصر التى فتحت أولًا صلحًا ثم نقض أهلها العهد ففتحت عنوة فى المرة الثانية ـ ، فإنه فى رأى الإمام أبو حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل ـ فى المشهور عنه ـ ، وما دلت عليه سنّة الرسول ﷺ ، وقول الأكثرين أن الإمام مخير بين ترك الكنائس لهم أو لا بحسب المصلحة ، ولكن إذا رأى الإمام هدم تلك الكنائس أو انتزاعها منهم لم يكن ذلك ظلمًا منه ، بل تجب طاعته فى ذلك كما رأى جمهور علماء الإسلام من المذاهب الأربعة وكبار الأئمة مثل سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وكبار الصحابة والتابعين ، كذلك أجمع علماء الإسلام على أنه لا يجوز أن يُحدث كنيسة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا أو عنوة[1] .

وعلى هذا الأساس ـ الذى سبق ذكره ـ تحدد موقف علماء مصر والشام من كنائس أهل الذمة بمصر والشام .

ففى مصر ، تذكر المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م توجه القاضى الشافعى

---

(١) ابن تيمية « مسألة فى الكنائس » ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٢، تحقيق على بن عبد العزيز ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ (١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ، ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ص ٦٨٢، ٦٨٥، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩٦، ٦٩٧، دار ابن خلدون ، مصر ، ١٩٩٥م ، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١٣ ص ٣٥٦، « المؤسسة المصرية العامة للتأليف » « د. ت » ، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٨ ص ٦٣٤.

ابن حجر العسقلانى[1] للكشف عن كنيسة لليهود ، قيل أنهم أحدثوا فيها بعض الأبنية ، ولمّا وصل ابن حجر وعاين تلك الكنيسة ثبت لديه بناء بعض الأبنية المُحدثة بتلك الكنيسة ، فأصدر ابن حجر حكمه بهدم تلك الأبنية ، وتم الهدم[2] .

وفى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م توجه القاضى الشافعى ابن حجر العسقلانى إلى الدير[3] الذى بباستين الوزير ، قيل أن النصارى أحدثوا فيه بعض الأبنية ، ولما وصل ابن حجر وعاين الدير ، وثبت لديه بناء بعض الأبنية المُحدثة بذلك الدير أصدر حكمه بهدمها ، وتم الهدم[4] .

ولقد تكرر ذلك المشهد ـ أيضًا ـ عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م حيث كلّف السلطان جقمق[5] العالم الأمين الآقصراى[6] بالكشف عن بعض كنائس النصارى واليهود بأرض مصر ، وهدم ما جُدد فيها من أبنية ، فقام العالم أمين الآقصراى بهذه المهمة خير قيام ، وفى ذلك قال أهل الذمة : « ما أحد إلا توصلنا إليه بحيلة إلا الشيخ أمين الآقصراى فإنه قد أعيانا أمره »[7] .

أمّا بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة[*] ، فلقد أجاز لهم علماء مصر

---

(١) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٢٦٠.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٣٧.

(٣) ذكر ابن دقماق أن هذا الدير هو دير النسطور ، وهو مخصص لطائفة النصارى اليعاقبة ، فقال عنه « دير النسطور يختص باليعاقبة بظاهر مصر ببساتين الوزير بالرمل » ، انظر : ابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ح ٤ ص ١٠٧، تحقيق كارل فولرس ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فى إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٣٥.

(٥) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٦) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٧) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٦٩، ١٧٠، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٤ ص ٧٥٠، ٧٥١.

(*) يرى غالب علماء الإسلام كالشافعى وأصحابه ، وأصحاب أبى حنيفة وكثير من أصحاب مالك ، وبعض أصحاب أحمد بجواز ترميم الكنائس القديمة إذا رثت ، انظر : ابن تيمية « مجموع ابن تيمية » ص ٤٢٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٠٥٤٥ب) (٢١١٤٣ مكروفيلم) ، ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ٢ ص ١٣٩، ١٤٠.

ذلك، ففى عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م رفع النصارى إلى قاضى الحنفية بدر الدين العينى[١] بترميم كنيسة[٢] قديمة لهم ببساتين الوزير، فأذن لهم بذلك[٣].

أمّا بلاد الشام، ففى القدس، تذكر المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أنه عندما بنى الرهبان الفرنسيسكان[٤] كنيسة لهم فوق مقام السيدة مريم ـ عليها السلام ـ على حد زعمهم، وهو يُعرف لدى المسيحيين باسم محراب مريم «Oratoire de Marie»[٥]، فكتب علماء القدس وعلى رأسهم الكمالى[٦] بن أبى شريف إلى السلطان قايتباى[٧] يخبروه بذلك، فأرسل السلطان إليهم بالنظر فى الأمر وفعل ما يوجبه الشرع، فحكم العلماء بهدمها[٨].

كما قام علماء القدس وعلى رأسهم ـ برهان الدين الأنصارى[٩] ـ بهدم الكنيسة التى

---

(١) بدر الدين العينى: محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء مصر على المذهب الحنفى، توفى ٨٥٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ١٣١.

(٢) ذكر المقريزى أنه يوجد ببساتين الوزير كنيسة تسمى كنيسة مريم وهى قبلى بركة الحبش، وأنها الآن خالية ليس بها أحد، انظر: المقريزى «تاريخ الأقباط المعروف «بالقول الإبريزى» ص ٢١٤، تحقيق د. عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٨.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٤.

(٤) **الفرنسيسكان**: هم أتباع القديس فرنسيس الذى استوطن بالقدس فوق جبل صهيون عام ١٢١٩م، حيث سمحت لهم السلطة الأيوبية بالإقامة هناك للتعبد، وكان الهدف من إقامتهم فوق جبل صهيون أن يحصلوا من السلطات الإسلامية على حق رعاية الأماكن المسيحية المقدسة فوق جبل صهيون، انظر: د. أحمد دراج «وثائق دير صهيون» ص ٢٢.

(٥) د. أحمد دراج «المماليك والفرنج» ص ١١٨.

(٦) الكمالى بن أبى شريف: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، صار عالم القدس ومفتيها فى عصره، ولد عام ٨٢٢هـ، انظر: مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٧٧.

(٧) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢ .

(٨) مجير الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٥٠.

(٩) برهان الدين الأنصارى: إبراهيم بن عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى القضاء بالقدس، درس، وأفتى، توفى عام ٨٩٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٥٦.

شيدها اليهود عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م[١].

أمّا بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة، فلقد أفتى علماء القدس بترميم كنيسة المهد ببيت لحم عام ٨١٤هـ/١٤١١م[٢]، وعام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[٣].

كما أشارات المصادر التاريخية إلى دور علماء القدس فى قضية مسجد النبى داود ـ عليه السلام ـ، وملخص تلك القضية أنه حدث تنازع بين المسيحيين «الرهبان الفرنسيسكان»[٤] وبين اليهود حول تملك هذا المسجد، حيث يرى المسيحيون أن هذا المسجد كان فى بادئ الأمر بيتًا لوالد يوحنا مرقص ـ أحد تلاميذ السيد المسيح ـ عليه السلام ـ، وكان مكانًا مختارًا لاجتماعه بهم، ومن هنا ارتبط تاريخ هذا البيت بتاريخ السيد المسيح ـ عليه السلام ـ والحواريين، وكان هذا البيت يتكون من طابقين، وفى القرن الرابع الميلادى حوّل البيزنطيون الطابق العلوى إلى كنيسة، ولقد سقطت تلك الكنيسة عام ١٢١٧م، وترتب على سقوط الكنيسة إهمال المسيحيين لهذا المكان، واقتصر الأمر على أن أصبح هذا المكان مزارًا للحجاج المسيحيين، ولقد دفع ذلك الإهمال المسلمين إلى العناية بهذا المكان، حيث كان يوجد بالطابق السفلى من هذا البيت ـ فى جهته الشرقية قبوًا يضم قبرًا ظل مجهولًا لا يعرف رفات من يضمه قرونًا عديدة، غير أن روايات اليهود أخذت تتواتر منذ القرن السادس الهجرى على أن هذا القبر هو قبر سيدنا داود ـ عليه السلام ـ، ولهذا رأى المسلمون العناية بهذا المكان فأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد[٥].

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة الهامة أحد حجاج الفرنج ريكولد دى مونت كروس «Ricold de Mont Croce» الذى أدى فريضة الحج فى أواخر القرن السابع الهجرى/

---

(١) ابن إياس «بدائع الزهور» ص ١٠٢، ١٠٣، مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٠٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٥٦.

(٢) د. أحمد دراج «وثائق دير صهيون» ص ٥٢.

(٣) د. أحمد دراج «المماليك والفرنج» ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) الرهبان الفرنسيسكان: انظر: ص ٣١٠.

(٥) د. أحمد دراج «المماليك والفرنج» ص ١٣.

السادس عشر الميلادى ، ولكن الرهبان الفرنسيسكان استطاعوا عام ١٣٣٥م بناء كنيسة بالطابق العلوى والتى سميت بكنيسة «عُليّة صهيون» ، ولكن اليهود منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى طالبوا بأحقيتهم فى تملك هذا القبو للقيام على رعاية قبر نبى الله داود ، وهذا ما نجحوا فيه عهد المؤيد شيخ[١] عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م ، وعهد برسباى[٢] عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، غير أن الرهبان استطاعوا استعادته عقب كل مرة[٣] ، وأخيرًا رأى السلطان جقمق[٤] عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م تحويل القبو إلى مسجد[٥] ، ولكن الرهبان لم يسكتوا على ذلك ، فأثاروا هذا الموضوع فى عهد الأشرف إينال[٦] ، وكذلك عهد السلطان قايتباى[٧] عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م ، فكتب السلطان قايتباى عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م إلى علماء القدس للنظر فى موضوع استحقاق الرهبان لهذا القبو ، فحكم علماء القدس وعلى رأسهم ـ الكمالى بن أبى شريف[٨] ـ بعدم أحقية هذا القبو للرهبان وأنه بأيدى المسلمين بمقتضى مرسوم السلطان جقمق عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م ، وأقر السلطان قايتباى حكم العلماء[٩] .

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم للمحاولات التى قام بها أهل الذمة بإقامة بعض الأبنية المحدثة بكنائسهم ، مخالفين بذلك حكم الإسلام فى ذلك الأمر ، الذى يحرم أن تحدث كنيسة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا أو عنوة .

أما بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة ، فلقد أجاز لهم علماء مصر

---

(١) شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٢) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٣) د. أحمد دراج « المماليك والفرنج » ص ٧٧.

(٤) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٥) مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٩٨.

(٦) د. أحمد دراج « المماليك والفرنج » ص ٨١.

(٧) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٨) الكمال بن أبى شريف : انظر : ص ١١٤، ٣١٠ .

(٩) مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥١.

والشام ذلك ، كما يرى غالب علماء الإسلام ـ كما سبق القول ـ .

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة :

نهى الرسول ﷺ استعمال المسلمين غير المسلمين فى أعمالهم ، فلقد أخرج الإمام مسلم(*) فى صحيحه ، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرّة ، فقال : إنى أردت أن اتبعك وأصيب معك . قال ﷺ : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : « لا » ، قال ﷺ : « ارجع ، فلن استعين بمشرك » ، ثم لحقه عند الشجرة ، ففرح بذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكان له قوة وجلد ، قال : « جئت لأتبعك وأصيب معك » ، قال ﷺ : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » ، قال : « لا » ، قال ﷺ : « ارجع فلن استعين بمشرك » ، ثم لحقه حتى ظهر على البيداء ، فقال له : « مثل ذلك » قال ﷺ : « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : « نعم » ، فخرج معه(١) .

وكذلك فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، حيث نهى الصحابى أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن استعمال أهل الذمة(٢) ، ولهذا فقد أجمع علماء الإسلام على عدم مشروعية استعمال أهل الذمة فى الولايات العامة(٣) .

ولكن أهل الذمة فى العصر(*) المملوكى شاركوا فى الجهاز الإدارى للدولة ، فلقد كانوا

(*) القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح ٦ ص ٢١٣ .

(١) ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ١ ص ١٦٤.

(٢) ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ١ ص ١٦٥.

(٣) ابن جماعة « تحرير الأحكام » ص ٤٣، ابن النقاش « محمد بن على » ، « المَذَمّة فى استعمال أهل الذمة » ص ٧٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٩٥٢ تاريخ) ، ومكروفيلم (٣٥٣٩٥) ، ابن تيمية « مسألة الكنائس » ص ١٢٨، ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ١ ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٨ ص ٦٤٣.

(*) كان أهل الذمة يشاركون فى الجهاز الإدارى للدولة الإسلامية ـ وبخاصة الجهاز الإدارى المالى ـ فى العصور السابقة للعصر المملوكى كالعصر الفاطمى والأيوبى ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : إبراهيم راشد مصطفى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٢٨٥، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م ، حسنين محمد ربيع « النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين » ص ١١٠، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٤م ، =

يشغلون حيزًا كبيرًا فى الجهاز الإدارى المالى بشكل خاص، فكان غالبية كتاب المال فى الدواوين المملوكية من أهل الذمة بسبب براعتهم فى الأعمال الحسابية منذ القدم، وأيضًا لعدم خوف السلاطين منهم على كرسى الحكم[١]، كذلك تولى أهل الذمة جباية أموال الضرائب[٢].

ولقد استنكر علماء العصر المملوكى ذلك الأمر، فطالبوا السلطة المملوكية بعدم استعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م حينما طالب علماء[*] مصر السلطان شيخ[٣] أن لا يباشر أحد من أهل الذمة فى دواوين الدولة فاستجاب لهم السلطان شيخ، ولم يستجب للمحاولات التى بذلها أهل الذمة من أجل الرجوع إلى المباشرة بالدواوين مقابل إيراد مبلغ من المال فى خزانة الدولة[٤].

ولقد تكرر ذلك المشهد السابق عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، حيث طالب علماء مصر ـ أمثال ـ علم الدين البلقينى[٥] السلطان خشقدم[٦] أن لا يباشر أحد من أهل الذمة فى دواوين

= قاسم عبده «أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك دراسة وثائقية» ص ٥٣، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٧٥م.

(١) د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ٥١، ٥٢، د. محاسن محمد «اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة» «٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ» ص ٦٥ ـ ٨٣، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٩٦م، د. قاسم عبده «أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك» ص ٨٠، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٢) د. قاسم عبده «أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى» ص ٨١.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم.

(٣) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٤) ابن تغرى بردى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٢٣٠.

(٥) علم الدين البلقينى: صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، توفى ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢.

(٦) خشقدم: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٢.

الدولة فاستجاب لهم السلطان[*][1].

وهكذا حارب علماء مصر والشام مشاركة أهل الذمة فى الجهاز الإدارى للدولة، وذلك من خلال مطالبة السلطة المملوكية بعدم استعمالهم بالجهاز الإدارى للدولة، فيضطر السلطان ـ فى أحيان غير قليلة كما سبق القول ـ إزاء ضغوطهم عليه بعزلهم من الجهاز الإدارى للدولة، حتى لا يظهر بأنه يخالف رأى الشرع الذى ينص على عدم مشروعية استعمالهم فى الولايات العامة.

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة:

إن أمر تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين أقرّه علماء الإسلام طبقًا للشروط العمرية[2] التى قسمها الفقهاء إلى قسمين، شروط مستحقة مثل عدم ذكر الإسلام بذم له أو

(*) يذكر ابن تغرى بردى، وابن إياس: عدم مباشرة أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة ذلك العام، غير أنهم بعد ذلك عادوا لوظائفهم بعد أن دفعوا مبلغًا من المال إلى خزانة السلطان المملوكى، ويذكر أحد الباحثين أن أهل الذمة كانوا يعودون إلى وظائفهم بإحدى وسيلتين، إما ادعاؤهم كذبًا الدخول فى الإسلام، وهو ما يفهم من اعتناقهم الإسلام مباشرة عقب طردهم من وظائفهم ـ، وإما إيراد أهل الذمة مبلغًا من المال فى خزانة السلطان حتى يرضى السلطان عنهم، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٤١٢، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٦ ص ٢٨١، د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ٥١، ٥٢.

(١) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٦ ص ٢٨١، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٤١٢، البقاعى «إظهار العصر».

(٢) إن الشروط العُمرية أساسها ما كتبه أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم من شروط اشترطوها على أنفسهم منها «أن نلزم زينا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين فى لبس قلنسوة ولا عمامة»، فكتب عبد الرحمن بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، فكتب إليه عمر «أن أمضى لهم ما سألوا، وأضاف إلى تلك الشروط شرطين، اشترطهما عليهم، وهما ألا يشتروا من سبايانا، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده»، وهذه الشروط بأسانيد عدة، وقد تلقاها العلماء بالقبول، وذكروها فى كتبهم، واحتجوا بها، أمثال الماوردى، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وهناك من الباحثين المعاصرين من أنكر هذه الشروط، ومنهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن سالم، حيث ذكر أن الشروط العمرية التى كتبها الخليفة عمر لأهل بيت المقدس لم تشمل هذه الأمور أو الشروط المستحبة ـ من لبس الغيار وغيره ـ، إنما كانت قاصرة =

قدح فيه، وعدم ذكر رسول الله ﷺ بتكذيب له أو ازدراء، فهذه شروط ملزمة متى نقضوها نقض عهدهم، وشروط مستحبة كلبس الغيار ـ الملابس ذات اللون المخالف للون ملابس المسلمين لتمييزهم عنهم ـ، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يجاهروا بشرب الخمر، وتلك الشروط المستحبة لا يكون ارتكابها يلزم عنه نقض عهدهم[1].

ولقد رأى علماء العصر المملوكى أنه يجب تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين، أمثال العالم ابن تيمية[2] «ت ٧٢٨هـ»[3]، والعالم ابن قيم الجوزيه[4]

= على إعطائهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، شأنها فى ذلك شأن المعاهدات الأخرى التى أبرمها الخليفة عمر بن الخطاب فى سائر البلدان المفتوحة، وذلك كما ذكر الطبرى فى تاريخه، ثم يذكر أستاذنا الدكتور أن رواية الطبرى للشروط العمرية التى كتبها الخليفة عمر لأهل القدس أدق من رواية ابن عساكر التى ذكرها فى تاريخه بشأن فتح القدس، تلك الرواية التى جاء فيها بعض الشروط المشابهة للشروط العمرية التى اشترطها أهل الجزيرة على أنفسهم، وأقرها الخليفة عمر ـ كما سبق القول ـ، وأنه إن كان رواية الطبرى فى فتح بيت المقدس أدق من رواية ابن عساكر فى فتح القدس ـ كما يرى أستاذنا الدكتور، وكما يراه الباحث أيضًا ـ، غير أن الأصل فى الشروط العمرية ليس رواية ابن عساكر فى العهدة العمرية عند فتح المقدس، ولكن أساسها ما اشترطه أهل الجزيرة على أنفسهم، وأقره الخليفة عمر، كما ذكر العلماء القدامى، انظر: ابن زين القاضى «شروط النصارى» ص ٣، الماوردى «الأحكام السلطانية» ح ٢ ص ٣٢٦، ٣٢٧، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٥م، ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ٢ ص ١١٣، ١٦٥، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٨ ص ٦٥١، عبد الراضى محمد «منهج ابن تيمية فى دراسة النصرانية» ص ٧٠، ٧١، ماجستير، قسم الفلفسة الإسلامية، دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، محاسن محمد «اليهود فى مصر المملوكية» ص ٨٥، ٨٨، د. عبد الرحمن سالم «بين العهدة العمرية وعهد محمد الفاتح لأهالى القسطنطينية» «دراسة تحليلية مقارنة» ص ٥٩، ٦٤، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى، العدد (١٨) عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

(١) الماوردى «الأحكام السلطانية» ح ٢ ص ٣٢٦، ٣٢٧، ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح١ ص ١٨٣، ١٨٤، ح ٢ ص ١٦٥، ١٦٦، عبد الراضى محمد «منهج ابن تيمية فى دراسة النصرانية» ص ٧٠، ٧١.

(٢) ابن تيمية: انظر: ص ٢٨٧.

(٣) ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٨ ص ٦٥٤.

(٤) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، صنف تصانيف عديدة،=

«ت ٧٥١هـ»[١]، كما تذكر المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م عقد مجلس بالصالحية[٢]، حضره القضاة، وقرروا خلاله طبيعة القيود التى كانت تفرض عليهم فى ملابسهم كشد الزنار[٣] على أوساطهم، وتصغير عمائهم[*] ونحو ذلك، وذلك حتى يلتزم بها أهل الذمة ولا يخالفوها[٤].

كذلك قام العلماء فى العصر المملوكى من خلال ولايتهم للحسبة، بمراعاة التزام أهل الذمة ببعض القيود التى كانت تفرض على ملابسهم كتصغير عمائهم ونحو ذلك[٥]، ومن ذلك ما

= توفى عام ٧٥١هـ، انظر: ابن العماد «شذرات الذهب» ح ٦ ص ١٦٨.

(١) ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ١ ص ١٨٣، ١٨٤، ح ٢ ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢) **الصالحية**: هى المدرسة الصالحية، التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابتداء من عام ٦٣٩هـ، وهى تقع بخط بين القصرين بالقاهرة، ولقد رتب فيها الملك الصالح دروسًا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة، وأوقف عليها الأوقاف، وكانت هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة، انظر: المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٢ ص ٣٧٤، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ٢ (١٩٨٧م)، محمود رزق سليم «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى» ح ٣ ص ٣٩، مكتبة الآداب، القاهرة، «د.ت».

(٣) **الزنار**: خيط غليظ يُشد فى وسط أهل الذمة، وهو من الإبريسيم ـ نوع من الحرير ـ، انظر: الشيخ المولوى محمد أعلى بن على التهانوى «موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون» ح ٣ ص ٦١٦، دار خيّاط، بيروت، حبيب زيّات «سمات اليهود والنصارى فى الإسلام» ص ٢٠٠، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٤٩م.

(*) يذكر ابن قيم الجوزية أن عمائم أهل الذمة كانت من اللون الأصفر، والأزرق، حيث كان هذين اللونين لا يلبسه المسلمون، ولقد ذكر الرحالة جون دى موند قيل، وغيره من الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع الهجرى أن اليهود كان يلبسون عمائم لونها أصفر، وكان النصارى عمائمهم زرقاء، والمسلمين كانت عمائمهم بيضاء، وتشير المراجع المسيحية أن النصارى كانت عمائمهم صفراء واليهود عمائمهم زرقاء مشرب بلون رمادى، انظر: ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ٢ ص ١٨٣، د. محاسن محمد «اليهود فى مصر المملوكية» ص ٩٤.

(٤) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٤١٢، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٦ ص ٢٨١، البقاعى «إظهار العصر».

(٥) ابن الأخوة «معالم القربة» ص ٤٠، ابن بسام «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» ص ٢٠٧، تحقيق حسام الدين السامرائى، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م عندما قام صدر الدين العجمى[١] ـ محتسب القاهرة ـ بإلزام أهل الذمة بتلك القيود على ملابسهم من تصغير العمائم وتضييق الأكمام[٢] .

وهكذا حرص علماء مصر والشام على تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين، وذلك وفقًا لما أقره علماء الإسلام طبقًا للشروط العمرية، فلقد صرح علماء العصر المملوكى بذلك فى مؤلفاتهم، كذلك كان القضاة بين الحين والآخر يصدرون أحكامهم بعدم مخالفة أهل الذمة للقيود التى فرضت على ملابسهم من شد الزنار ونحو ذلك، وذلك عندما يجدوا تهاونًا منهم فى ذلك الأمر.

كما كان العلماء ـ من خلال ولايتهم للحسبة ـ يراقبون التزام أهل الذمة بهذا الأمر حتى لا يخالفوه.

(١) صدر الدين العجمى: هو أحمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، وهو من أبرز فقهاء الحنفية فى عصره، تولى حسبة مصر، توفى ٨٣٣هـ، ابن طولون «الغرف العلية» ص ١٥٨.

(٢) ابن حجر «إنباء الغمر» ح٧ ص ٣٤٨، العينى «عقد الجمان» ص ٣٦١ .

obeikandl.com